الحياة خارج الأقواس

سيرة غير ذاتية للمدعو سعيد

سعيد السريحي



الكتاب: الحَيَاةُ خَارِجَ الأَقْوَاس

المؤلف: سعيد السريحي

التصنيف: سيرة غير ذاتية

الناشر: دار مدارك للنشر

الطبعة الأولى: إبريل (نيسان) 2020 م

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN: 978 - 614 - 429 - 765 - 0

«الغلاف فكرة المؤلف يتخيل نفسه شيخاً تماهياً مع الكتاب»



الرياض: ruh@mdrek.com
دبي: dxb@mdrek.com
بيروت: bey@mdrek.com

DarMadarek
read@mdrek.com
mdrek.com

شركة مطابع نجد التجارية
Najd Commercial Printing Press Co

سعيد السريحي

الحَيَاةُ خَارِجَ الأَقْوَاس

سيرة غير ذاتية للمدعو سعيد

إلى ذكراهم جميعاً...

أولئك الذين يسكنونني

سعيد

هذه الأوراقُ كُتِبَتْ في زمَنٍ قد يجيءُ، وقد لا يجيءُ...

قـادَني إلى سريـري وانـصرفَ مسرعًـا، سـمعتُه يقـولُ لأمِّـه في الغرفـةِ المجـاورةِ:

- المرَّةْ الجايّةْ روحي إنتِ معاهْ المستشفى.

لمْ أسمعْ ماذا قالتْ لهُ غيرْ أنَّه أكملَ:

- أحرجْنـي مـع الدكتـورْ، خـلاصْ خـرّفْ، صـارْ مجنـونْ رسـمي.

ومرةً أخرى لمْ أسـمعْ مـاذا قالـتْ لـهُ، احتـدَّ صوتُـه قليـلًا وهـو يقولُ متهكِّمًا:

- عقـلْ جدّكْ يـوزنْ بلـدْ.. عقـلْ جـدّكْ يـوزِنْ بلـدْ، كلْ ما قلـتْ لـكْ شيْ قلـتِ عقـلْ جـدّكْ يـوزِنْ بلـدْ.. واللهْ لـو كنـتِ معانـا عنـدْ الدكتـورْ مـا كانْ قلـتِ كـذا ..خـلاصْ ذاكْ يِمكـنْ زمـانْ ... تخيَّـلي ايـشْ قـالْ للدكتـورْ لّمـا سـألُهُ مِـنْ متـى يحـسّ بـالألمْ في ظهـرُه؟

وجاءَ صوتُها هامسًا تسألُهُ عمّا قلتُ.

كنـتُ أعـرفُ أنّـهُ سـوفَ يخبرُهـا، سـألَني ونحـنُ نغـادرُ عيـادةَ الطّبيـبِ عـنْ سـببِ آلامِ الظّهـرِ والكتفـينِ التـي بـتُّ أشـكو منهـا، قلـت لـه:

– ما أدري .

بدا عليهِ الغضبُ والتفتَ يسألُني:

– طيّبْ ما دامْ ما تدري يا جدْ ليشْ قلتْ للدكتورْ إنّها بسببْ شيلَكْ للجملْ على ظهرَكْ؟

– ما هو جملْ واحدْ، كانوا ثلاثةْ جمالْ.

– كمانْ؟ ثلاثةْ جمالْ؟ بالعَددْ؟

– إيوا ثلاثةْ جمالْ، الأخيرْ بغى يكسِرْ لي ظهري.

– بسْ اللّي شالْ الجمالْ ما هو إنتَ. جدّكْ السّابعْ أو الثامنْ راضي...

– راضي أبو الجمالْ جدّي السّابعْ، ماهو الثامنْ.

– السّابعْ أو الثامنْ ما هي القضيّةْ، المهمْ إنّه ما هو إنتَ .. إنتَ بنفسَكْ من زمانْ حكيتْ لنا قصّتُه وكيفْ شالْ جمالُهْ واحدْ واحدْ و...

– عارِفْ.

–طيّبْ ما دامْ إنتَ عارفْ ليشْ قلتْ للدكتورْ إنّهْ وجعْ ظهرَكْ بسببْ إنّكْ إنتَ اللّي شِلتْ الجمالْ؟

– ما أدري..

- ما تدري ليهْ قلتْ له إنّك انتَ اللّي شلتْ الجمالْ؟

- إيوا ما أدري، وبعدين أنا وجدّي واحدْ .. ما فيهْ بينَنا فرقْ.

قلتُ له ذلكْ وضحكتُ، متظاهرًا بالمزحِ لعلّه يكفُّ عنّي أسئلتَه التي لا أجدُ لها جوابًا، ولم تَنجّني تلكَ الضّحكةُ، نظرَ إليّ بريبةٍ:

- إنتَ وجدَّكْ واحدْ ؟

- إيوا واحدْ، وجمالُه اللّي شالَها على ظهرُهْ أحسَّها على ظهري، ما هو بسْ اليومْ ، منْ يومْ ما عرفتْ إنُّه لي ظهرْ وإنُّه في الدنيا جمالْ.

ضحكَ ثمّ عادَ يسألُ:

- طيّبْ وإيشْ حكايةْ السّيلْ اللي قلتْ لنا إسمعوا هديرُه؟

- سّيلْ وادي أبو قرنْ اللي قطعْ الدّربْ وبسببُه شِلتْ الجمالْ.

- يا جدْ قلنا لكْ إنُّهْ صوتْ المكيِّف.

- أنا سمعتْ هديرْ سيلْ.

- لا حولَ ولا قوةَ إلا باللهْ، يا جدْ .. إنتَ تبغى تجنّنّي؟

- لا ترمي بلاويكْ عليّا .. إنتَ أصلًا عقلكْ خفيفْ.

- أنا برضُهْ اللّي عقلي خفيفْ يا جدْ؟

- لا تكثّر الكلامْ، وصّلني البيتْ وبسْ.

لمْ أكنْ قادرًا على أنْ أفسّرَ لهُ ما دعاني إلى قولِ ما قلتُه للطّبيبِ، ولمْ أكنْ أنا نفسي أعرفُ السّببَ الذي دعاني إلى قولِ ذلكَ، حينَ وضعَ الطّبيبُ يدَه على موضعِ الألمِ بينَ كتفيَّ وسألَني:

- مِنْ إمتى يا حاجْ بتحسّ بالألمْ؟

- منْ زمانْ يا دكتورْ.. منْ زمانْ

- منْ زمانْ يعني منْ إمتى؟

كانتْ الشّمسُ على وشْكِ المغيبِ والسّيلُ يقطعُ الطّريقَ بيني وبينَ منازلِنا في أعالي وادي أبو قَرْن، وجمالي الثلاثةُ كلّما دفعتُها لتعبرَ السّيلَ جفلتْ من هديرِ الماءِ، عواءُ الذّئابِ تجعلُ من المبيتِ في ذلكَ المكانِ مخاطرةً لا يُقدمُ عليها إلّا من يجهلُ شراسةَ الذئابِ التي تستوطنُ أعالي الوادي، وما منْ حطبٍ جافٍ أوقدُ بهِ نارًا أدفعُها بها عنّي، حاولتُ مرارًا أنْ أقودَ جمالي الثلاثةَ وأعبرُ

السّيلَ ولمْ أستطعْ، تجفلُ كلّما اقتربتْ منه، عقلتُ جملين وانحنيتُ تحتَ كلكلِ الثالثِ، رفعتُه على ظهري فانتصبَ على قائمتيهِ الخلفيّتين، قطعتُ به السّيلَ، عقلتُه على الضّفةِ الأخرى، وخضت السّيلَ عائدًا للجملينِ الآخرينِ أحملهما واحدًا واحدًا كما حملتُ الأوّلَ منها..

– يا حاجْ.. مِنْ إمتى بديتْ تحسّ الألمْ؟

عادَ الطبيبُ يسألُني..

– منْ يومْ ما شِلتْ الجمالْ.

أنزلتُ الجملَ الثالثَ من على ظهري وانسللتُ منْ تحتِ كلكلِه، ارتميتُ على الأرضِ مهدودَ القوى، ابتعدَ الجملُ عن السّيلِ الهادرِ وارتفعَ رغاءُ الجملينِ المعقولين، غمرَني الزّبدُ المتطايرُ من ارتطامِ الماءِ بالصّخورِ، نهضتُ متحاملًا على نفسي، شعرتُ بألمٍ يسري في فقراتِ ظهري والسّيلُ يتزايدُ هديرُه..

– السّيلْ.. السّيلْ

– أيّةْ سيلْ يا جدْ؟

سألَ حفيدي، ورفعَ الطّبيبُ يدَه عنْ ظهري.

– السّيلْ .. ما تسمعونْ هديرُهْ؟

– صلّي على النّبي يا جدْ، هذا صوتُ المكيّف.

– صوتُ المكيّف ؟

صفقتُ كفًّا بكفٍّ وقلتُ ساخرًا وأنا أداري خجلي منْ وهمي وأرمي بنظري إلى المكيّفِ خلفَ مكتبِ الطّبيبِ:

– طيّبْ خلّيكمْ مكّيفينْ معاه

– إيهْ حكايةْ جدّك؟ السّيلْ والجمالْ .. هوَّ كانْ يشيلْ جمالْ؟

سألَ الطّبيبُ حفيدي وهو يكتبُ وصفةَ الدّواءِ.

– لا.. بسْ تلخبطَتْ عليهْ الأمورْ.

وأكملَ بما يشبهُ الهمسَ الذي وشى لي بما يندسُّ فيه من التّهكمِ:

– حُكمْ السّنْ يا دكتورْ.. ادعي له بحُسنْ الخاتمةْ.

كنتُ قبلَ ذلكَ بأيّامٍ قد استيقظتُ، ربّما كانَ الذي استيقظَ في داخلي بدويٌّ قديمٌ، على شهوةٍ عارمةٍ لكأسٍ من حليبِ النّوقِ، لمْ أكنْ في حقيقةِ الأمرِ ممنْ يتشهّى حليبَ النّوقِ، وربّما لمْ يتجاوزْ شُربي له بضعَ مرّاتٍ كانتْ محفوفةً بتخوّفي من مخاطرِ ما كانَ يُحاكُ حولَ هذا الحليبِ

الـذي يبيعُـه الرّعـاةُ عـلى جوانـبِ الطّريـقِ مـن شـبهاتٍ، ومـا كانَ يثـارُ مـن تأثـيرٍ لهـذا الحليـبِ عـلى مـنْ لمْ يتعـوّدْ على شُربِـه.

كنّـا نجلسُ إلى مائـدةِ الغـداءِ ضيوفًـا، حـين امتـدّتْ يـدي إلى كأسٍ مـن الحليـبِ، نظـرَ إليّ الرَّجـلُ الملتحـي الجالـسُ أمامـي، وأشـارَ بإصبعِـهِ محـذّرًا:

- إنتبـهْ، تـرى حليـبْ النّيـاقْ يـضرّ اللّي مـا هـو متعـوّدْ عليـه.

عـلى شـفتيهِ لاحـتْ ابتسـامةٌ سـاخرةٌ جرحـتْ كبريـاءَ البـدويِّ السّـاكنِ تحـتَ جلـدي وأظافـري، تذكّـرتُ وجهَـه، هـو ذلـك الرجـلُ الـذي طالمـا شـنّع علـيّ في مجالسِـه ونعتنـي في خُطبِـه بالخـروجِ عـلى القيـمِ والتقاليـدِ ومخالفـةِ الأعـرافِ المتبعـةِ، رفعـتُ الـكأسَ إلى فمـي، شربتُـه دفعـةً واحـدةً:

- حليبْ النّياقْ يضرّ اللّي ما شبعْ من حليبْ أمّه:

قلـتُ لـه ذلـكَ وأعـدتُ الـكأسَ إلى موضعِهـا مـن المائـدةِ، كنـتُ سـاعتَها مسـتعِدًّا أنْ أتجـرَّعَ كأسًـا مـن السّـمِّ كـي لا أتـركَ لابتسـامتِه الصفـراءِ فرصـةَ التّشـكيكِ في البـدويِّ الـذي يشربُ حليـبَ النّـوقِ بلـذّةِ مَـن يلعـقُ مِـنْ على طـرفِ خنجرِه دمَ خصمِـه الـذي أرداه قتيـلًا.

لمْ أكـنْ لأخطـئَ سـاعتَها رؤيـةَ شـبحِ الهزيمـةِ ترتسـمُ عـلى

وجهه، ولم أكنْ لأخطئ الإحساسَ بنشوةٍ من أردى خصمَه تسرى في جسدي، الإحساسَ بنشوةِ سقراطَ حينَ نظرَ من علٍ لأولئكَ الذين حكموا عليه بالموتِ وأولئك الذين أعدّوا له السّمَّ، رفعَ كأسَه عاليًا وتجرّعَها دفعةً واحدةً:

- في موتِكم.

أظنّه قالها حتى لو لم يروِ التاريخُ ذلك عنه، لا بدّ أن يكونَ قد قالَها، إن لم يقلْها في هذا الموقفِ فمتى يمكنُ له أن يقولَها، قالَها وكأنّما كانَ يقولُ لهم أنتم جميعًا سوفَ تموتون وأنا وحدي سوفَ أبقى حيًّا لا أموتُ، أتجرّعُ السّمَ وتتجرعون جميعًا اللّعنةَ، كأنّي أراهم يحيطون بي، أولئكَ الذينَ حكموا على سقراطَ بالموتِ فماتوا جميعًا، أرمي بجثثِهم تحتَ مائدةِ الطعامِ وأطلبُ كأسًا آخرَ من حليبِ النوقِ.

حدّثت أحفادي بشهوتي لكأسٍ منْ حليبِ النّوقِ، ولّما لمْ يثنني تحذيرُهم لي منه اصطحبوني إلى حيثُ الجمالُ التي اتّخذَ رعاتُها منْ جوانبِ الطّريقِ حظائرَ ومراتعَ لها، توقّفنا عندَ واحدةٍ منْ تلكَ الحظائرِ، وحينَ اقتربَ حفيدي زيادٌ منْ أحدِ الجمالِ صرختُ فزعًا:

- انتبهْ يا عطا الله، انتبهْ للبعير

- مين عطا الله يا جدّ؟

سألني أحدُ أحفادي مستغربًا.

- قصدي زياد، ما انتَ شايفْ كيفْ لاصقْ في البعير؟

- ايشْ جابْ اسمْ زياد عند اسمْ عطا الله؟

- لا إلهَ إلّا الله، غلطتْ، يعني الواحدْ ما يغلطْ؟

ولمْ أكنْ في حقيقةِ الأمرِ قدْ أخطأتُ في الاسمِ، حينَ صرختُ محذّرًا كانَ الذي رأيتُه يقفُ عندَ البعيرِ عطا الله وليسَ زيادًا أو أيَّ أحدٍ غيرَه، وكانتْ نظرةُ البعيرِ هي تلكَ النظرةُ التي لا يمكنُ لي أنْ أنساها.

كانَ عطا الله قدْ أمعنَ في جلدِ البعيرِ، تكسّرتِ الخيزرانةُ في يدِه وهو يجلدُه، كانَتِ الشّمسُ قد مالتْ إلى المغيبِ، ووقتُ عودةِ الرُّعاةِ من المرعى قد حانَ، والبعيرُ شاردٌ في الفلاةِ يأبى أنْ يعودَ، انصرفنا إلى منازلِنا قربَ المشنقةِ في وادي أبو قرن، ولحقَ بنا ذلكَ البعيرُ، وحينَ اقتربَ منه عطا الله رأيتُ في عينِه نظرةَ حقدٍ لا يمكنُ أنْ يخطئَها رجلٌ يعرفُ طبعَ الجمالِ مثلي، وتيقنتُ أنَّ عطا الله لنْ ينجوَ بفعلتِه تلكَ من انتقامِ ذلك البعيرِ فصرختُ به محذِّرًا.

نزعَنا منْ منامِنا تلك الليلةَ رغاءُ بعيرٍ يهدرُ، وصوتُ

عراكٍ، ورجلٌ يصرخُ، ولمْ نستطعْ أنْ ننقذَ عطا الله منْ فتكِ البعيرِ به، داهمَه وهو نائمٌ فبركَ عليهِ وطحنَه تحتَ كلكلِه انتقامًا من جلدِه له.

سألني حفيدي مرةً أخرى سؤالَ غيرِ المقتنعِ بما أجبتُهم به:

- مين عطا الله يا جدّ؟

لمْ أجبْه وتذكرتُ أبي، كانَ إذا ما روى لي تلكَ الحكايةَ ختمَها متعوِّذًا بالله منْ ثلاثة: السّيلُ إذا انحدرَ والجملُ إذا هدرَ والعبدُ إذا غدَرَ، كأنّما يختصرُ بها أقدارَ الإنسانِ حينَ يجتمعُ عليهِ عنفوانُ الطبيعةِ، وشراسةُ الحيوانِ، وفتكُ الإنسانِ بالإنسانِ، كأنّما يستعيذُ من الشّرِّ الكامنِ فيما يظنُّه الإنسانُ خيرًا محضًا، شرُّ السّيلِ الكامنِ في المطرِ الذي يرفعُ يدَه طالبًا من الله أنْ يغيثَه بهِ، وشرُّ الحقدِ المتخفّي في البعيرِ رفيقِه في الحَضَرِ والسَّفرِ وفي الحربِ والسِّلمِ، وشرُّ الخديعةِ فيمنْ يتوهّمُه الإنسانُ تابعًا له ومعينًا.

اعتدتُ قبلَ ذلكَ على مثلِ هذهِ الخطراتِ التي تمرُّ بي وتقذفُني خارجَ المكانِ والزّمانِ، غيرَ أنّها لم تكنْ تتجاوزُ أنْ تكونَ لحظاتٍ عابرةً لا ألبثُ أنْ أستردَّ وعيي قبلَ أنْ تستبدَّ بي، وقبلَ أنْ يبدوَ منها شيءٌ لمنْ حولي وتظهرُ في

أقوالي وتصرّفاتي التي بتُّ لا أجدُ تفسيرًا لها حين يسألُني أحدٌ عمّا أعنيه بما قلتُ أو يتعجّبُ أحدٌ ممّا يصدرُ عنّي من أفعالٍ.

تعوّدتُ بعدَ ذلكَ، حينَ استبدّت بي هذه الخطراتُ، على ضحكاتِ أحفادي وهمْ يتهامسونَ حولي:

- جدّنا خرّف.

ولمْ تفلحْ محاولاتُ أمّهم في ردعِهم عمّا يتهامسونَ به، وكانتْ حريصةً في كلِّ مرةٍ تنهرُهم فيها أنْ تنصَحَهم:

- ترى راحْ يجي عليكمْ يومْ وأحفادْكم يقولونْ عنكمْ اللّي تقولونه عن جدّكم.

وتختمُ نصائحَها وتحذيرَها لهم بمطالبتِهم أنْ يدعوا لي بحُسنِ الخاتمةِ..

حسنُ الخاتمةِ، تلكَ الكلمةُ التي باتَ يردِّدُها كلُّ الذين حولي، أبنائي وبناتي، أحفادي وحفيداتي، جيرانُنا الذينَ لا دخلَ لهم بي ولم يكلِّفْ أحدٌ منهم نفسَه بزيارتي في صحةٍ أو مرضٍ، حتّى زوجتي التي لا تصغُرني إلا ببضعِ سنواتٍ باتتْ تردِّدُ مثلَهم: يا الله حسنْ الخاتمة.

لمْ يعدْ أحدٌ يتمنّى لي شيئًا غيرَ ذلك، حسنُ الخاتمةِ، تلك الدعوةُ التي لمْ تكن تعني لي أكثرَ من دعاءٍ عليَّ بالموتِ مع أمنيةِ أنْ يكونَ موتًا رحيمًا، كأنّما هم يعبّرونَ عنْ رغبةٍ دفينةٍ في الخلاصِ منّي بعدَ أنْ أصبحتُ فيما يبدو عبئًا عليهم، ليسَ ذلك فحسبْ وإنّما أنْ يكونَ الخلاصُ سهلًا لا يكلّفُهم كثيرَ عناءٍ ومزيدًا من العنايةِ ومراجعةِ المستشفياتِ.

أتوجّسُ أحيانًا ريبةً فيما إذا كانَ دعاؤهم لي بحسنِ الخاتمةِ يتضمّنُ سوءَ ظنٍ بما سلفَ من حياتي ويأملونَ أنْ يكونَ حسنُ الخاتمةِ كفارةً لي عنْ كلِّ ما ارتكبتُه من أخطاءٍ وخطايا.

سأل حفيدي أمّه ذاتَ مساءٍ:

- جدّي كانْ كافر؟

- أستغفر الله العظيمْ، ما تستحي على وجهكْ؟ ما تشوفْ جدّك ما يفوّتْ فرض؟

- قصدي زمانْ في شبابه.

- ترى عيبْ تقولْ كذا، مو بسْ عيبْ، حرامْ كمانْ، جدّك من يومه..

- طيّب ليه كانوا يشتمونه ويقولون إنّه حداثي، وكمان الجامعةْ سحبتْ منّه الدكتوراة؟

يقاطعُها كمنْ يحاولُ أنْ يحلَّ ظفيرةً من الأسئلةِ اشتبكتْ في رأسِه.

- لأنّهم كانوا متشدّدين ومتطرّفين ويكرهون اللّي ما يفكر زيْ تفكيرْهم المتشدّدْ.

- طيّب.

قالَها ببرودٍ، وأكادُ اشكُّ في قناعتِه بما قالتْ أمُّه فليسَ له أنْ يفهمَ معنى التّشدّدِ والتطرّف كما عرفَه وعانى منه أولئكَ الذينَ عاشوا تلكَ الحقبةَ السّوداءَ من تاريخِنا واكتوَوا بجحيمِها، كانَ أبنائي يعودون من مدارسِهم وفي حقائبِهم تندسُّ الأشرطةُ والمنشوراتُ التي لا تخلو من غمزٍ ولمزٍ لي وطعنٍ في وطنيّتي حينًا وتشكيكٍ في ديني حينًا آخرَ:

- إنتو تعرفون ابوكم..صحْ؟

- طبعًا..

وأحمدُ اللهَ أنَّ أسماءَهم تحملُ اللقبَ الأخيرَ في اسمي، الحربي، فلا يعرفُ أحدٌ أنَّهم أبناءُ السَّريحيِّ الذي تحذّر من فكرِهِ تلكَ المنشوراتُ والأشرطةُ.

لستُ ألومُهم يدعونَ لي بحسنِ الخاتمةِ فأنا قدْ عشتُ طويلًا، عشتُ فيما أظنُّ أكثرَ ممّا ينبغي، تعلمتُ وعملتُ وتزوّجتُ وأنجبتُ وربَّيتُ وارتحلتُ في أرجاءِ الأرضِ، ثمّ انتهى كلُّ شيءٍ، لم تعُدْ لي أيُّ مهمَّةٍ في الحياةِ يمكنُ أنْ أقومَ بها، كانَ ينبغي لي أنْ ألوّحَ بيدي وأنصرفَ، أو أنصرفُ دونَ استئذانٍ ودونَ تلويحةٍ وداعٍ.

لم تعدْ لديّ رغبةٌ في أنْ أعملَ شيئًا، أؤثرُ أنْ أبقى في فراشي طويلًا، ليسَ ذلكَ لأني عاجزٌ عن القيامِ وإنّما لأنني بتّ أشعرُ أنْ لا شيءَ يستحقُّ أنْ أغادرَ فراشي من أجلِه، لم يعدْ هناكَ معنى لبقائي حتّى الآنَ حيًّا.

أصبحتُ مثلَ مُسعَدٍ الذي بقيَ سنواتٍ طريحَ الفراشِ ليسَ بحيٍّ ولا ميّتٍ، حينَ انحنيتُ مسلّمًا عليهِ فتحَ عينيهِ وبزفرةٍ تشبهُ جذبَ دلوٍ من بئرٍ قالَ:

- شايفْ يا سعيدْ حتّى الموتْ ما هو راضي يجيني.

- أجرْ وعافيةْ يا عمْ مسعدْ.

- الأجرْ عندْ اللهْ، والعافيةْ ما عادْ لنا فيها طَمَعْ، أخذْنا منها إليْنْ اكتفينا، ما بقي لنا غيرْ الموتْ اللي ما هو راضي يجي .

- الصّبرْ يا عمْ مسعدْ.

- الموتْ نسيني يا سعيد..

- الموتْ ما ينسى أحدْ والأعمارْ بيدّ اللهْ.

سمعتُ أبناءَه منْ حولي يدعونَ له بحُسْنِ الخاتمةِ، لم أكنْ أظنُّ أنّني سأبلغُ من العمرِ ما يجعلُ أبنائي يدعونَ لي بحُسْنِ الخاتمةِ كذلك، يدعونَ لي بحُسْنِ الخاتمةِ وأنا مازلتُ قادرًا على الوقوفِ والمشيِ، لمْ أكنْ طريحَ الفراشِ مثلَ مُسعدٍ، ولم أكنْ مستعِدًا للموتِ، بتُّ في مرحلةٍ لم أعدْ فيها راغبًا في الحياةِ ولكنّني لم أصبح مستعِدًا فيها للموتِ.

أقلّبُ خاتمةَ أولئكَ الذين رحلوا، أبحثُ عن خاتمةٍ تليقُ بي، لا أكادُ أتذكّرُ غيرَ أولئكَ الذينَ أسكنتْهم الحكاياتُ ذاكرتي طفلًا، مصارعُ رجالٍ ونساءٍ كانتْ ميتاتُهم خاتمةَ الحكاياتِ: قتلى كتبَتْ ضربةُ سيفٍ أو طعنةُ خنجرٍ آخرَ سطورِ تجاربِهم في الحياةِ، غرقى يتقلّبونَ في الموجِ لا يعرفُ أحدٌ هلْ كانَ آخرُ ما شهدوه سماءً لم تُغثْهم أو قاعَ بحرٍ

تتربّصُ بهم حيتانُه، مرضى أوهنتْ الحمّى أجسادَهم أو مزّقَ الجدريُّ جلودَهم يستحثّونَ موتًا بطيئًا تأخّرَ كثيرًا في الوصولِ إليهم، أطفالٌ سرقَهم الموتُ في غفلةٍ من أمهاتِهم المنشغلاتِ بغسلِ ملابسِهم.

أبحثُ عن خاتمةٍ لي فتقضُّ مضجعي النهاياتُ:

- ماذا لو تغمضُ عينيكَ للنّوم ثمّ لا تفتحُها أبدًا، يأتيكَ الموتُ كما يأتيكَ الحلُمُ، كما تأتيكَ أطيافُ الذين ماتوا، تنامُ ثم لا تستيقظُ، تستيقظُ فتجدُ نفسَك قد متَّ والسّلام.

ماذا لو متّ بسلامٍ كما ماتتْ آسيا، كانتْ على موعدٍ مع الموتِ، نهضتْ من نومِها صباحًا، سألتْ ابنتَها عمّا إذا كانتْ قد مرَّتْ السّنواتُ السَّبعُ على وفاةِ والدِها، وحينَ أنبأتْها ابنتُها بذلكَ فتحتْ خزانةَ ملابسِها وأخرجتْ كفنَها، بخرّتْه بالعودِ وعطرّتْه بالعنبرِ، ثم فردتْه على السّرير تتأملُه، دعتْها ابنتُها إلى طعامِ الإفطارِ فأخبرتْها أنّها صائمةٌ، عادتْ تتأملُ كفنَها على السّريرِ، لمّتْه ثم فردتْه سجادةً لها وراحتْ تصلي.

كانتْ آسيا تنازعُ زوجَها السِّباقَ إلى الموتِ، كلّما تذكّراه هتفتْ به:

- ربّي يجعلْ يومي قبلْ يومكْ.

وكانَ كلّما قالتْ ذلكَ ذكّرَها بالسّنواتِ السّبعِ:

- شوفي يا بنتْ خالي، سبقْتِكْ بسبعْ سنينْ، عِشتَها في الدِّنيا قبلْ ما تنولدينْ، ولازمْ تعيشينَها بعد ما أموتْ، وبعدَها تلحقينْ بي.

تُكرِّرُ دعاءَها بأنْ يكونَ يومُها قبلَ يومِه، وتقولُ بدلالٍ لم تحرمْها منه مرارةُ ما قاستْه في حياتِها من أحزانٍ:

- يعني يا أبو يحيى تبغى تسبقْني في الولادةْ وتسبقْني كمانْ في الموتْ؟ خلّيك مِنْصِفْ، وحدَةْ ليّا ووحدَةْ لكْ.

- ما يبغى لها كلامْ، هي سبعةْ سنين، يعني سبعة سنينْ، لا تزيدْ ولا تنقُصْ، وإنْ كانْ ما لحقتيني بعدَها تراني جاي آخذْك.

أكملتْ آسيا صلاتَها، رفعتْ يديها بالدّعاءِ، ثم اضطجعتْ على كفنِها، أغمضتْ عينيها وماتتْ بسلامٍ.

أتذكّرُ أصدقاءَ طفولتي، أعتقدُ أنّهم ماتوا جميعًا، وربّما لا يزالُ بعضُهم أحياءً ينتظرونَ مثلي الموتَ، لم أعدْ راغبًا في زيارةِ أحدٍ منهم، ويبدو أنّ أيًا منهم لم يعدْ يرغبُ في زيارتي، سئمْنا من بعضِنا، سئمْنا من أنفسِنا، عشْنا زمنًا

نستمتعُ بما كنّا نفعلُ، ثم عشنا زمنًا نستمتعُ بحديثِنا عمّا فعلناه، قالَ عبدُالله الخطيبُ:

- لم أعدْ أجدُ متعةً إلّا في الحديثِ إلى الأصدقاء.

قلتُ له:

- انتظرْ يا أبا عليٍّ، سوفَ يأتيكَ زمنٌ لا تجدُ فيهِ متعةً حتّى في حديثِ الأصدقاءِ.

مللْنا ونحن نتذكّرُ براءةَ أيامِ الطّفولةِ ونزقَ ليالي الشَّبابِ، أصبحَ حديثُنا مكرَّرًا، جاملْنا بعضَنا فترةً من الزّمنِ ثمّ لم نعدْ نطيقُ المجاملةَ، لا يكادُ واحدٌ منّا يبدأُ قصةً حتّى يصرخَ به أحدُ الحاضرين:

- يوه يا صالحْ، هذي القصَّةْ قلتَها لنا يمكنْ ميّةْ مرّةْ.

- مِنْ جدْ؟ أنا ما أفتكرْ.

- حنّا نفتكرْ، يمكنْ آخرْ مرَّةْ الأسبوعْ الماضي.

لم تعدْ الحياةُ كفيلةً بمنحِنا تجاربَ وقصصًا جديدةً يمكنُ أنْ نتسامرَ بها إذا ما اجتمعنا، قال لي صالح بوقري ذاتَ مرّةٍ:

- عارفْ ايشْ اتمنّى؟

- هوّ باقي شيْ نتمناه؟

صمتَ صالحٌ برهةً صمتَ من صدمتْه الحقيقةُ التي يحاولُ أنْ يتجنّبَ مواجهتَها، قلتُ ضاحكًا كمن يخفّفُ عنه وطأةَ الصّدمةِ أو يمعنُ في إيلامِه:

- حُسْنْ الخاتمةْ؟

- خلاصْ، تراني تعقّدتْ من هذي الكلمةْ.

- نفسْ الشيْ، قولْ لي ايش تتمنّى طيّبْ؟

- أتمنّى لو إنّنا كلّنا نفقدْ ذاكرتْنا، نصحى من النّومْ ونلقاها انمسحتْ.

ضحكتُ وقلتُ له إنَّ هذه الذّاكرةَ هي كلُّ ما تبقّى لنا فلماذا يتمنّى هذه الأمنيةَ، قالَ وهو يتصنّعُ الحكمةَ:

- منْ شانْ نقدرْ نعيدْ قصّ قصصْ الطُّفولةْ والشّبابْ، وما أحدْ من أصحابَنا يقاطعْنا ويقولْ سمعناها منّك قبلْ كذا.

- طيّبْ يا فالحْ إذا انمسحتْ ذاكرتْنا كيفْ نقدرْ نتذكرْ ونحكي؟

- هذي فاتتْ عليّا.

انفجرَ صالحٌ ضاحكًا، فقدتْ ضحكتُه حيويتَها، ضحكتُه التي كانَ إذا ضحكَ اهتزَّ لها جسمُه كلُه، باتتْ باردةً مثلَ حديثِه، مثلَ أحاديثِنا جميعًا، كنّا إذا ضحكَ نضحكُ من طريقتِه في الضّحكِ ثمّ أصبحتْ تلكَ الضّحكةُ مكررةً لا تُضحِكُنا، فرغَ من ضحكتِه ثم أكملَ يقولُ كمنْ وجدَ حلًّا:

- يا أخي بسيطةٌ، إذا انمسحتْ ذاكرتُنا نألّفْ قصصْ ونتسلّى بها.

- شايفْ آخرتْها يا أبو هتّان؟ ما عادْ نتسلّى بغيرْ القصص.

- مثلْ ما بدينا، كنَّا نتسلّى بالقصصْ واحنا صغارْ، وصرْنا نتسلّى بالقصصْ لما عجّزْنا.

- صرنا إحنا القصصْ.

- واللهْ يا سعيدْ أحسّ إنّه حياتَنا كلَّها قصّةْ طويلةْ ومملّةْ، والمشكلةْ مو إنّها قصّةْ طويلةْ ومملّةْ وبسْ، المشكلةْ إنها قصّةْ حياتَنا بسْ مو إحنا ابطالَها، على ذكْر النّسيانْ، كيفْ ذاكرتَكْ؟

- ملخبطةْ ومحيّرتني، أتذكّرْ التّفاصيلْ الصّغيرةْ

لحاجاتٌ مرّتْ عليها عشراتُ السّنينْ، وحاجاتْ تافهةْ، وأنسى أسماءْ أحفادي، أنسى عشايَ اللّي اكلتُه البارحْ.

- كلّنا ترى كذا، مو إنتَ وحدَكْ.

أتذكّرُ أصدقاءَ الطّفولةِ، كنتُ إذا ما شاركتُهم اللّعبَ لا أستطيعُ أنْ أركضَ مثلَهم، لم يتركْ لي الربو الذي كنتُ أعاني منه قدرةً على مشاركة أندادي اللعب طفلًا، وجدت في القراءةِ ملعبي الذي آنسُ إليهِ حين أعجزُ عن مشاطرتِهم ملاعبَ الطُّفولةِ، كنتُ لا أكادُ أجد ورقةً في الطّريقِ إلا التقطتُها أقرأُها، رآني عم ياسين الذي كانَ يؤجّرُ الدراجاتِ لأبناء الحيِّ، سألني:

- تحبْ القراية؟

أشرتُ بنعم، اختفى في الغرفةِ الملحقةِ بدكّانِه وعادَ يحملُ لي قصّةً مصوَّرةً، مجلّةَ سوبرمان، فتنتني قواه الخارقةُ، وزدتُ حبًّا له حين قرأتُ أنَّ اسمه حين وُلِدَ في كوكبِ كريبتون سعيد، وليس نبيلا كما سمّته الأسرة التي تبنته عند وصولِه إلى الأرضِ، ولم تكنْ بنيتي الهشّةُ التي لم تكنْ تعينني على اللعبِ مع أندادي تحولُ بيني وبين استشعارِ قوّةٍ خارقةٍ يحملُها لي الاسمُ المشتركُ بيني وبين سوبرمان، وكم من ليلةٍ أغمضتُ عيني على وهمِ أن يلقيَ بي انفجارُ

الأرضِ إلى كوكبٍ أمتلك فيه القوى الخارقةَ التي امتلكَها سوبرمان حين ألقى به انفجارُ كوكبِ كريبتون إلى الأرضِ.

كان سوبرمان الأحلامِ الليليَّةَ يحاولُ أن يجاريَ أندادَه في اللعبِ غيرَ أنّه لا يلبثُ أن يتوقّفَ ممسكًا صدره:

- خلاصْ راحْ أموتْ من التّعبْ

ولم أمتْ قطْ، ماتوا كلّهم وبقيتُ وحدي، ربّما لم يموتوا كلُّهم ولكنّي بقيتُ وحدي.

- مينْ تتوقَّعونْ أوّلْ واحدْ يموتْ فينا؟

سألَ زكي سالم دريب وهو يمسحُ العرقَ والغبارَ عن وجهه.

- إنتَ.

- إن شا اللهْ إنتَ.

قالَها بغضبٍ، وأكملَ:

- ايشْ معنى أنا؟ تتفاولْ عليَّ.

- لا مو كذا، أنا قلتْ إنتَ من شانْ إنتَ أكبرْ واحدْ فينا.

بعد سنواتٍ ماتَ زكيٌّ، كانَ موتُه رسالةً تذكّرنا بأنّنا

جميعًا لم نعدْ بعيدينَ عن قبضةِ الموتِ، كانَ موتُ آبائنا، قبلَ ذلكَ، إشعارًا لنا بأنّ بقاءَنا على الأرضِ لم يعدْ طويلًا، كأنّما كانَ آباؤنا جدارًا يقفُ بيننا وبينَ الموتِ، بيننا وبينَ كلِّ أجدادِنا الذينَ ماتوا، سدًّا يوفّرُ لنا فسحةً من الحياةِ أو فسحةً من الوقتِ، حينَ ماتَ آباؤنا واحدًا تلوَ الآخرِ شعرْنا أنّنا غدوْنا مكشوفين، أحسسْنا أنّنا قد أصبحْنا في مواجهةِ الموتِ، نتأرجحُ بين جيلٍ يولدُ وأجيالٍ شبعتْ موتًا، نقفُ على حافّةِ خندقٍ، نقرأُ على أرواحِنا الفاتحةَ وسورةَ ياسين، ونتأمّلُ مواقعَ قبورنا في ذلك الخندقِ العميقِ، كلّما ماتَ والدُ واحدٍ منّا لمْ نعرفْ هل نحملُ له العزاءَ في أبيه الذي ماتَ أو في نفسِه التي أصبحتْ في مرمى الموتِ، نتساءلُ منْ منّا يمشي في أربعينِه والتي لمْ تكنْ سوى الأربعينَ يومًا التي تسبقُ وفاتَه، وكان آباؤنا وأمهاتُنا قد علّمونا أنّ الملائكةَ تعزّي أبانا آدمَ فيمنْ يموتُ من ولدِه قبلَ أربعينَ يومًا من موتِه، نعزّي بعضَنا فيمنْ يموتُ من آبائنا ثم نتواعدُ على أنْ نلتقي في عزاءِ من سوفَ يموتُ منّا قريبًا.

- مين آخرْ واحدْ يموتْ فينا؟

سألَ سليمانُ وهو ينفثُ دخانَ سيجارتِه في الهواءِ ويتابعُ دوائرَه تحومُ كما الموتُ فوقَ رؤوسِنا، سألَ وكأنّما كانَ يشعرُ أنّه هو المرشّحُ للموتِ القادمِ.

- أنا، أنا أبغى أكونْ آخرْ واحدْ يموتْ.

قلتُ له قبل أن يكملَ سؤالَه كمن يسارعُ لحجزِ آخر موعدٍ مع الموتِ، عادَ ينفث دخانَ سيجارتِه، ينسدلُ الدّخان كستارةٍ بينَنا وبينَه، ومنْ خلفِ ستارةِ الدّخان جاءَ صوتُه:

- خلاصْ إنبسِطْ، تقعدْ وحدَكْ زيّ القردْ، ويومْ تموتْ ما تلقى واحدْ من اصحابَكْ يمشي في جنازتَكْ ويقرا على قبرَكْ الفاتحةْ.

ماتَ سليمانُ منّاع، وماتوا جميعُهم، ربّما ماتوا جميعُهم، وبقيتُ وحدي منتظرًا الموتَ، أتخيّلُ نعشي محمولًا على الأعناقِ، أرفعُ رأسي قليلًا، أحاولُ أنْ أرى أحدًا من أصحابي بينَ المشيعينَ فلا أرى منهم أحدًا، أكرّرُ النّظرَ فلا أرى أحدًا من المشيعين، ونعشي يسيرُ وحيدًا في الطّريقِ المتعرّجِ نحوَ مقبرةِ الرّويسِ.

منذ زمنٍ طويلٍ لم أعدْ أتذكَّرُ كم بلغتُ من العمرِ، يسألُني أحفادي عن عمري ولا أعرفُ بمَ أجيبُهم، يلحّون عليّ بالسّؤال:

- واللهْ ما عادْ أتذكّرْ.

- يعني تتذكّرْ كلْ شيْ وعمرَك نسيتُهْ؟

- شوفوا، الإنسانْ ممكنْ يتذكّرْ تاريخْ ميلادُهْ، بسْ الأعمارْ بيدّ اللهْ، هوَّ بسْ اللي يعرفْها

- رجعنا للّخبطةْ.

قالَها حفيدي فنهرتْه أمُّه والتفتتْ إليّ وكأنّما هي ترأبُ جرحًا:

- الله يعطيكْ العمرْ والعافية يا أبويا..

- عُمُرْ؟ أكثرْ من كذا؟

قالَ حفيدي فنهرتْه أمُّه ثانيةً:

- له حقْ .. ما أظنْ إنّي عشتْ كُثرْ كذا من قبل..

ضحكَ أحفادي، وقاومتْ ابنتي الضّحكَ، وسألني أحدُهم:

- ليهْ هوّ إنتَ عشتْ قبلْ كذا يا جدْ؟

- كلّنا عشنا قبلْ كذا..

ضحكـوا، ولم تسـتطعْ ابنتـي مقاومـةَ الضّحـكِ، همـسَ أحدُهـم:

- جدّنا خرّفْ.

- جدّكم يمزحْ معاكم، وإنتمْ ما تعرفونْ المزحْ.

لمْ أكـنْ أمـزحُ وكانـتْ تعـرفُ أنّي لمْ أكـنْ أمـزحُ غـيرَ أنّها أرادتْ أنْ تحافـظَ عـلى مـا تبقّـى مـن صـورتي أمـامَ أبنائهـا واحترامِهـم لي، أعـرفُ أنّهـا هـي نفسَـها باتـتْ تعتقـدُ أنّنـي خرَّفـتُ، سـمعتُها مـرةً تقـولُ لأختِهـا:

- لازمْ ننتبهْ لأبونا أكثرْ، صارْ مرّةْ يفوّت.

- يبغى لنا نودّيه لدكتورْ أمراضْ نفسية.

- مـا أظـنْ يـرضى، هـو مـا هـو حاسـسْ بمرضُـهْ، ولـو قلنـا لـه راحْ يزعـلْ.

- نقـولْ لـه نبغـى نودّيـك لدكتـور يكشـفْ عـلى السّـكرْ ونودّيـهْ للدكتـورْ النفسـاني.

عادَ حفيدي يسألُ:

– طيّبْ يا جدْ ما دامْ إنتَ عشتْ قبلْ كِدا فينْ كنتْ عايش؟

– في الدّيرة.

– أيّةْ ديرةْ يا جدْ؟ كلّنا نعرفْ إنّكْ انولدتْ في جدّةْ وعشتْ فيها كلْ حياتكْ والدّيرةْ ما رحتْ لها إلا مرّة وحدةْ مع عمّ مسعود الله يرحمه وعمّ صالح

شعرتُ أنّي تورطتُ فيما قلتُه لهم وأنّي لنْ أفلتُ من أسئلتِهم التي لا تعبّرُ عن الشّكِّ فيما أقولُ فحسب وإنّما السّخريةُ منه كذلك، لمْ يكنْ لي بدّ منْ أحدِ خيارين، أنْ أتجاهلَ ما قلتُ كما أفعلُ عادةً، أو أنْ أمعنَ فيما أقولُ فأواجهَ سخريتَهم بسخريةٍ مثلِها لعلّهم يحملونَ ما قلتُه لهم في البدءِ على أنّه ضربٌ من السّخريةِ كذلك، تصنّعتُ التّفكيرَ ثمّ قلتُ:

– صحيحْ، بسْ ترى هذي المرّةْ الأخيرةْ هيّ اللّي انولدتْ فيها بعيدْ عنْ الدّيرةْ، المرّاتْ اللّي قبلَها انولدتْ في الدّيرةْ، منْ أيامْ أبونا آدمْ يمكنْ.

– ما شاءْ اللهْ يا جدْ، يعني منْ أيّامْ أبونا آدمْ وإنتَ تنولدْ وتعيشْ وتموتْ وتنولدْ ثاني في الدّيرة؟

- هذي اللّي أفتكرْها، بسْ بالتّأكيدْ قبلَها مرّاتْ ماعادْ افتكرْها، اللهْ وحدُه اللي يعرفْ وينْ انولدتْ ووينْ عشتْ.

- يعني ياجدْ إنتَ تؤمنْ بالتّناسخْ؟

- تناسخْ في عينكْ.. ليهْ قالوا لكْ هندوسي؟

- بسْ اللّي تقوله زيْ التناسخْ.

- لا، ما هو تناسخْ .. حاجةْ ثانيةْ صعبْ تفهمونها.. عقولكمْ ما تستوعبها.

- طيّبْ فهّمْنا.. حاولْ تفهِّمْنا .. يمكنْ نفهمْ.

صددتُ بوجهي عنهمْ، لمْ أكنْ قادرًا أنا نفسي أنْ أفهمَ فكيفَ أستطيعُ أنْ أشرحَ لهم شيئًا لستُ أفهمُه، لمْ أكنْ قادرًا على تمييزِ ما كنتُ أفكّرُ فيه، كنتُ عاجزًا عنْ أنْ أتبيّن حقيقتَه، وما إذا كانَ نتاجَ ضربٍ عميقٍ من التأمّلِ، أو أنّه علامةٌ على إصابتي بالخرفِ كما كانَ الذين حولي يتهامسون.

- قلتْ لكمْ جدّي خرّفْ.

- خلاصْ بلاشي أسئلةْ ما لها معنى .. سيبوا جدّكم يرتاحْ.

غادروا الغرفةَ، اقتربتْ منّي معتذرةً:

- معلِشْ يا أبويا.. سامحْهم ذولْ جُهّالْ.

- معاهـم حـقْ يـا بنتـي .. معاهـم حـقْ .. أنـا نفسي مـا أدري ليـش أقـولْ كـذا.

- معلِـشْ كلّنـا نتلخبـطْ أحيـانْ، مـو بـسْ إنتَ..المهـمْ ارتـاحْ شـويةْ عـلى بـالْ أجهّـزْ لـكْ العشـا.

- تبغون تودّوني لدكتورْ نفساني؟

- لا يا أبويا، مينْ قالْ لكْ كذا؟

- مـينْ قـالْ لي؟ سـمعتكمْ بنفـسي إنـتِ وأختِـك، مـو بـسْ كـذا، كـانْ تبغـونْ تضحكـونْ عليّـا وتقولـونْ لي نودّيـكْ لدكتـورْ يكشـفْ عـلى السّـكرْ.

- لا واللهْ يـا ابويـا، كانـتْ مجـرّدْ فكـرةْ، وأنـا مـا وافقـتْ، أنـا قلـتْ لهـا أبويـا بخـيرْ وعافيـةْ.

لم أسـمعْها تقـولُ لأختِهـا ذلـك، ولكنّـي تقبّلـتُ كذبتَهـا تلـك، ربّـما تكـونُ قالـتْ ذلـك ولكنّـي لم أسـمعْها، أشـكّ أحيانًـا في قـدرتي عـلى السّـمع، أسـمعُ أحيانًـا اصـواتَ الجـيرانِ وهـم يتحدّثـون، وأحيانًـا يحتـاجُ أبنائـي وأحفـادي لرفـعِ أصواتِهـم حـينَ يتحدّثـون معـي فيسـمعُهم الجـيرانُ وأنـا عاجزٌ عـن سـماعِ مـا يقولـون.

غادرتُ الغرفةَ، رحتُ أفكّرُ فيما قلتُ لهم وقالوا لي، راودني شكٌّ فيما إذا كنتُ قد وُلِدتُ في جدّةَ، أتذكّرُ جيّدًا يومَ أنْ دخلتُ مكةَ قبلَ ما يقاربُ المائةَ عام طفلًا يتيمًا لا يتجاوزُ العاشرةَ من العمرِ إلّا قليلًا يفرُّ من قسوةِ خالِه الذي كانَ لا يغفرُ له ذنبًا ولا يقبلُ منه ضعفًا، طفلًا لا يعرفُ من جهاتِ الأرضِ إلا اتّجاهَ القبلةِ، فمضى يضربُ في الأرضِ شهورًا يبحثُ عن مكّةَ التي كانَ اسمُها يتردّدُ على مسامعِه، كلّما فقدتْ أقدامُه الطريقَ إليها سألَ الرّعاةَ عنْه، وحينَ يسألونه عنْ وجهتِه يغمغمُ:

– ضاعَ لنا بعيرٌ وأنا أدوّرُ عليه.

أتذكّرُ أنّي دخلتُ مكةَ من بابِ الفقرِ والجوعِ، هالتني بيوتُها وأسواقُها وملابسُ الرّجالِ فيها، وقفتُ على رجالٍ يبنونَ بيتًا، سالني كبيرُهم عمّا أريدُ.

– أدوّرْ شُغُل.

تأملْ ساعديَّ النّحيلين مرتابًا في قدرتي على العملِ غيرَ أنّه عادَ وأشارَ لي بأنْ أشاركَ العمّالَ في نقلِ الحجارةِ، حملتُ حجرين وحينَ انحنيتُ لحملِ الثالثِ سقطتُ فوقَه، أفقتُ وهم يرشّونَ عليّ الماءَ والدّمُ يسيلُ من جبيني وكبيرُهم ينظرُ إليّ بأسى:

- يا ولدي إنتَ وجعانْ ما تصلحْ للشّغلْ.

- أنا ماني وجعانْ.

- كيفْ ما أنتَ وجعانْ؟ شلتْ حجرين ودُختْ.

- أنا جيعانْ، لي ثلاثةْ أيامْ ما طبْ بطني الزّادْ.

أتلمّسُ جبيني أحاولُ أنْ اجدَ أثرَ الشّجَّةِ ولا أجدُها، دخلتْ عليّ ابنتي ووجدَتْني ساهمًا أفكّر، سالتُها:

- إنتِ متأكّدةْ إنّي أنا انولدتْ في جدّة؟

- ويْ يا أبويا، طبعًا متأكّدة.

- أجلْ مينْ اللّي جاءْ من الدّيرةْ لمكةْ وهوّ طفل؟

- جدّي مصلحْ الله يرحمُه، ليه؟

- ولا شيْ، اللهْ يرحمُهْ.

غادرتْ الغرفةَ وبقيتُ وحدي، عدتُ أتساءلُ كم بلغتُ من العمرِ، جميعُ الوثائقِ الرّسميّةِ تحملُ تاريخًا محدّدًا باليوم والشّهرِ والسّنةِ لولادتي، غيرَ أنّي أشكُّ في كلّ تلك الوثائقِ فأنا أتذكّرُ أحداثًا حدثتْ قبلَ ذلك بزمنٍ طويلٍ، أتذكّرُها جيّدًا وكأنّها حدثتْ أمسِ دونَ أنْ يخالطَني ارتيابٌ، أتذكّرُها في شيخوختي كما كنتُ أتذكّرُها

في طفولتي ممّا يجعلُني مطمئنًّا أنها ليستْ نتيجةَ اضطرابِ الذّاكرةِ أو الخرفِ الناتجِ عن التقدّمِ في السّنِّ.

مذْ كنتُ طفلًا كانتْ تلكَ الأحداثُ القديمةُ تراودني، كنتُ أرويها لأمّي وأبي روايةَ من شهدَها وشاهدَها بأمِّ عينيه، وكانوا يضحكونَ حينًا وأحيانًا يصحّحونَ لي ما كانوا يعتبرونَه مجرّدَ خيالاتٍ وأوهام، وكنتُ أتشبّثُ بحقيقةِ ما كنتُ أرويه، سايرتُهم بعد ذلك فاعتبرتُها من خيالاتِ وأوهامِ الطّفولةِ، ولكنّني حينَ أتذكّرُها الآنَ، وقد تقدمتْ بي السّنُّ، فإنّني أتذكّرُها بوضوحٍ لا مجالَ معه لنسبتِها للأوهامِ والخيالاتِ حتّى وإنْ أوقعَني ذلكَ في حيرةٍ من أمري وعجزٍ عن معرفةِ حقيقةِ عمري، ربّما كانتْ ابنتاي على حقٍّ، فأنا مريضٌ دونَ أنْ أشعرَ أنّي مريضٌ، أصبحتُ كما كنتُ أنعي على بعضِ النّاسِ فأصفُهم بالجهلِ المركّبِ وأقولُ إنهم يجهلون ويجهلون أنّهم يجهلون.

في طفولتي كنتُ كثيرًا ما أحدّثُ أمّي وأبي وجدّتي عن أحداثٍ وقعتْ، كما يقولون، قبلَ ولادتي بزمنٍ طويلٍ فيضحكون، حدّثتهم مرةً عن خالتي فاطمةَ التي ماتت بالجدري:

- كانْ وجهَها كلُّه حبوبْ وجروحْ وكانتْ تصيحْ: يا ربّ أموتْ ولا أعيشْ وشكلي كذا، وكانت جدّتي تبكي

وتقولْ لها: أذكري الله يا فاطمةْ، وكنتْ أنا جالسْ خايفْ وجدّتي تقولْ لي قومْ انقلعْ منْ هنا لا تنصابْ بالجدري، كنتْ أسالها: طيبْ ليهْ إنتِ ما تنصابينْ بالجدري؟ وكانتْ تقولْ لي: خلاصْ أنا جدّرتْ من زمانْ، الجدري ما يجي للإنسانْ مرّتين.

- يا وليدي هذي القصّةْ قبلْ ما أنولدْ أنا.

- بسْ أنا أفتكرْها، ولمّا ماتتْ خالتي كانتْ جدّتي تصيحْ: يا حُرقةْ كبدي عليكْ يا فاطمة، وجاراتْها يقولونْ لها: الصّبرْ الصّبرْ يا صلوحْ.

- يا حبيبي سمّي بالرحمنْ، هذي حكايةْ قديمةْ، مرّةْ قديمةْ وإنتَ تفتكرها لأنّه جدّتكْ قالتْ لكْ عنْها.

ثمّ تقولْ وهي تلتفتُ لوالدي:

- أنا قلتْ لأمّي، اللهْ يهديها، لا تفجّعْ الولدْ بقصصْ عيالْها وبناتْها اللّي ماتوا.

- خلّيها تقولْ لهْ كلْ شيْ .. هذي القصصْ تقوّي قلبُه.

- كفايةْ عليهْ قصصْ جدّانكْ، كلّها ذيابهْ وعقاربْ وحيايا وسلبْ ونهبْ وقاتلْ ومقتولْ.

- كلّها تقوّي القلبْ، ما أحدْ يدري عن الدّنيا، بلاويها تحتاجْ رجّال قلبُه حجرْ.

لمْ تورِّثْني تلكَ القصصُ قلبًا حجرًا، أورثتْني قلبًا سكنَه الحزنُ مبكّرًا، قلبًا مسكونًا بالموتى وجنازاتٍ تلوحُ أمامي كلّما أغمضتُ عيني، وتراودني كلّما جلستُ وحيدًا، أتشبّثُ، كالكبارِ، بالصّبرِ

- طولْ الصّبرْ يودّي القبرْ.

تقولُها جدّتي وكأنّما هيَ تمنحُني إذنًا بالبكاءِ.

- أبو دمعةْ.

هكذا كانتْ أمّي تسمّيني مؤنِّبةً كلّما رأتْني أبكي، تلتفتُ لوالدتِها:

- تفتكرينْ يا يُمّهْ لّما رحْنا الحجّ؟ آخرْ مرّةْ قبلْ ما ياخذني أبو سعيد؟

- إيوا، بعدْ ما خرجتي منْ عدّتْك على أبو صالحةْ اللهْ يرحمُهْ.

- إيوا، في يومْ عرفةْ شفتْ ولدْ يدعي اللهْ ويبكي، وطلبتْ ربّي يرزقني بولدْ، دارتْ الأيامْ ورزقني ربّي بسعيدْ، دمعتُه قريبةْ، كلّ ما شفتُه يبكي أتذكّرْ الولدْ اللّي شفتُه يومْ عرفةْ.

كثيرًا ما كنتُ أستحضرُ ذلك الولدَ، محرِمًا يستديرُ حولي الحجّاجُ، مستقبِلًا جبلَ الرّحمةِ، أرفعُ يديَّ إلى السّماءِ، أدعو والدّمعُ ينهمرُ من عينيَّ، وامرأةٌ تقفُ بينَ الحجّاجِ تنظرُ إليّ ثمّ ترفعُ كفّيها بالدّعاءِ، كانتْ تلك المرأةُ هي أمّي التي لا تشبهُها امرأةٌ في النّساءِ.

- قومْ، ما هو زينْ تجلسْ على العتبةْ

قالتْ أمّي، وكنتُ أجلسُ ساهمًا حزينًا على عتبةِ البابِ، ثم سألتني عنْ سببِ حزني، رحتُ أحدّثُها عنْ عمّتي سالمةَ، خرجتْ ترعى أغنامَها وهي تحملُ طفلَها الذي لمْ يتجاوزْ أسبوعَه الثّاني، تعثّرتْ في طريقِها إلى المرعى، سقطَ طفلُها من بينِ يديها على الحجارةِ المتناثرةِ على جانبيّ الطريقِ ..قلتُ لأمّي وأنا أجهشُ بالبكاءِ:

- كانْ الدّمْ يسيلْ منْ راسه وكانْ يصيّحْ، قالتْ لي عمّتي سالمةْ إنتبهْ له، وراحتْ تجيبْ خرقةْ تربطْ بها راسُه، بسْ ماتْ قبلْ ما ترجع.

- سمّي بالرّحمنْ حبيبي .. هذي القصّةْ جرتْ من زمانْ، قبلْ ما تنولدْ.

- بسْ أنا أفتكرْها.

- حبيبي، تفتكرْها منْ شانْ سمعتْ أبوكْ قالَها لنا.

- لا .. لا.. أنا كنتْ معاها وتركتْ ولدْها عندي وماتْ.. وثوبي صارْ كلّه دمْ.

- يتهيّأ لكْ حبيبي.

- وَيْ، كيفْ يتهيأ لي ؟ أنا أكذّبْ يعني ؟

ومن أقصى المجلسِ جاءَ صوتُ أبي مؤنّبًا:

- كمْ مرّةْ قلتْ لكْ لا تقولْ وَيْ، وَيْ يقولونَها البناتْ بسْ، وإنتَ ما انتَ بنتْ.

كانَ أبي رقيبًا على طريقتي في الكلامِ، يغفرُ لي كثيرًا من زلّاتي، ولكنّه لا يغفرُ لي كلمةً ينحرفُ بها لساني عنْ لهجتِنا وطريقتِنا في الكلامِ، يسألُني متى نمتُ البارحةَ، أقول:

-قِعِدتْ أقرا...

يقاطعُني قبلَ أنْ أكملَ الجملةَ:

- قَعَدتْ، قَعَدتْ، ما هو قِعِدت، لا تتكلّمْ زيْ أهلْ ثولْ وذهبانْ، هذا ما هو كلامَنا.

ثمّ ينصرفُ غاضبًا دونَ أنْ يسمعَ منّي إجابةً على سؤالِه.

احتضنتني أمّي، كأنّها تخفّفُ عنّي قسوةَ أبي:

- لا، سلامتُك من الكذبْ حبيبي، يتهيّأ لكْ يعني تتخيّلْ.

طلبَتْ منّي مرَّةً أخرى أنْ أنهضَ ثمّ نصحَتْني ألّا أجلسَ على العتبةِ ثانيةً، عرفتُ حينَ كبرتُ أنّ العتبةَ مكانٌ مفضّلٌ للجنّ، يكمنونَ للإنسِ في الفاصلِ بينَ مكانينِ، كما يكمنونَ في الفاصلِ بينَ زمنينِ، العتبةُ الفاصلةُ بينَ داخلِ الحجرةِ وخارجِها، ووقتُ غروبِ الشّمسِ الفاصلِ بينَ اللّيلِ والنّهارِ، صرتُ، بعدَ ذلك، في الفواصلِ يختبئُ الجنُّ كما يختبئُ المعنى في التفاصيلِ، المعاني جنُّ الكلام، كنتُ أتعمّدُ الجلوسَ على العتبةِ وقتَ الغروبِ، أتحيّنُ مكانَ الجنِّ وزمانَهم، ومعَ ذلكَ لمْ ألتقِ بجنيٍّ قطْ، كما لم أقبضْ قط على معنى، كلما شددتُ يدي على طرفٍ منه تسرَّبَ كالماءِ أو كالرَّملَ من فرجاتِ أصابعي، لم ألتقِ قط بمعنى، كما لم ألتقِ قط بجنّي.

تناوشتْ طفولتي الحكاياتُ، ضاقتْ المسافةُ بين ما أحياهُ وما أسمعُه، بينَ ما أتذكّرُه وما أتخيّلُه، تحكي جدّتي مغمضةَ العينينِ، لم يتركْ لها الموتُ من أبنائها وبناتِها العشرة الذين تخطّفهم الجدريُّ والحصبةُ والحمّى والعينُ غيرَ أمّي والحكاياتِ، ذهبوا وأخذوا معهم نورَ عينيها|بكتْ حتّى جفَّ دمعُها، ومع آخرِ دمعةٍ سقطتْ أغمضتْ عينيها إلى الأبدِ، كانتْ كلّما حاولَ أحدٌ أنْ يحملَ إليها العزاءَ تردّدُ:

- بعدهمْ ما بقي شيْ في الدّنيا ينشافْ.

تتنهّدُ وتكملُ:

- واللهْ ما كنتْ أظنْ إنّه قلبي حجر.

- ليهْ ياجدّةْ تقولينْ عن نفسكْ كذا؟

- عشرةْ يا وليدي، عشرةْ من عيالي وبناتي راحوا قدّامْ عيوني، ولحِقْهم أبوهم وأنا قاعدةْ حيّة آكلْ وأشربْ، واللهْ لوْ ما قلبي حجرْ كانْ انفطرْ عليهم ولحقتهم.

مغمضةَ العينينِ تتحدّثُ:

- منْ هذا البابْ خرجتْ جنازاتُهمْ، واحدْ ورا الثّاني.

وتشيرُ بيدِها إلى البابِ، بدهشةِ طفلٍ يعرفُ أنّها عمياءُ أسألُ:

- جدّة.. إنتِ تشوفين؟

- إيوا.

- بسْ عيونكْ مغمّضةْ.

لا أقولُ لها بأنّها عمياءُ، كانتْ كلمةُ عمياءَ من الكلماتِ المحرّمةِ في البيتِ، ولكنّها تعرفُ ما أعنيهِ، تبتسمُ فتكشفُ عنْ سنٍّ وحيدٍ بقيَ لها:

- عميا بسْ تراني أشوفْ بقلبي.

أغمضُ عينيّ مثلَها وأصغي لحكاياتِها...

تعثّرتْ في طفولتي أكثرَ من مرّةٍ وأنا أحاولُ أنْ أرى بقلبي، أغمضُ عينيَّ وأمشي كما كانتْ جدّتي تفعلُ، وكنتُ كثيرًا ما أتعثّر في عتباتِ الأبوابِ وأصطدمُ بالجدرانِ، نهرَني أبي كثيرًا ولامتني أمّي أكثرَ:

- ربّي خلقْ لكْ عيونْ منْ شانْ تفتّحْها وتشوفْ دربَك، ما هو تمشي مغمّض زيْ العميانْ.

- بسْ جدّتي تشوفْ دربَها وهيَّ مغمّضةْ.

- جدّتكْ ما تشوفْ، بسْ ربّي نوّرْ بصيرتْها.

- قالتْ لي هيّ تشوفْ بقلبَها.

- تشوفْ بقلبَها منْ شانْ ربّي نوّرْ بصيرتْها.

- طيّبْ أنا أبغاه ينوّرْ بصيرتي.

- صلّي ولمّا تصلّي ادعي إنّهْ ربّي ينوِّرْ بصيرتْك.

وباتتْ تلكَ دعوتي كلّما صلّيتُ، ولمْ تكنْ استجابةُ تلكَ الدعوةِ بالنّسبةِ لي إلّا أنّني أصبحتُ أبصرُ كلّما أغمضتُ عينيَّ بحارًا وشواطيءَ وسفنًا غرقى، أوديةً وجبالًا وسهولًا تعوي فيها الذّئابُ، وسماءً تدنو منّي فإذا رفعتُ لها كفّيَّ نأتْ عنّي.

كانَ أبي حينَ يتحدّثُ يشيحُ بنظرِهِ بعيدًا، كأنّما كانَ يرى أجدادَه يلوحونَ في الأفقِ، ينحدرونَ من ذُرى الجبالِ، ينتصبون حولَه حينَ يستغرقُ في سردِ تلك الحكاياتِ، أتلفّتُ لعلّي أرى ما كانَ يراهُ فلا أرى شيئًا، وحينَ أغمضُ عينيَّ أرى بقلبي كلَّ شيءٍ، جبالًا سودًا وأوديةً وذئابًا تعوي، وأفاعيَ ورجالًا.

تعوّدتُ أنْ أغمضَ عينيَّ قبلَ أنْ أنامَ، أرى جثثًا تطفو غرقى على الماءِ ووجوهًا مزّقَها الجدريُّ وأجسادًا ذوَتْ

من الحمّى ورقابًا جزّتْها السّيوفُ ورجالًا يلمّونَ في ثيابِهم أشلاءَ بطونِهم التي مزّقتْها الخناجرُ، كانتْ قطعانُ الماشيةِ وقوافلُ النّوقِ وسفنُ البحرِ ومزارعُ النّخلِ ميادينَ لموتٍ قادمٍ لا تلبثُ الحكاياتُ أنْ تُفصحَ عنْه.

أغمضُ عينيّ وأرى حكاياتِهم، وحينَ كبرتُ قليلًا صرتُ أرى حكاياتي، أغامرُ صوبَ البحرِ وحيدًا أبحثُ عن أولئكَ الذين ذهبوا إلى البحرِ ولم يعودوا، أكتشفُ جزرًا مهجورةً، على شواطئِها أجدُهم، أحملُهم معي وأعودُ بهم إلى أمهاتِهم وزوجاتِهم وبناتِهم الذين فقدوهم ولمْ يفقدوا الأملَ في عودتِهم، أغامرُ صوبَ وديانٍ موحشةٍ وحيدًا، أرعى ماشيتي وأفقأُ عيونَ الذّئابِ التي تلمعُ في اللّيلِ وأفتّشُ الكهوفَ عن جثثٍ خبأَها أجدادي فيها.

تقدمتُ في السّنِّ غيرَ أنّي بقيتُ ذلكَ الطّفلَ الذي يغمضُ عينيهِ ويصنعُ حكاياتِه، ينسجُها ممّا يسمعُ وممّا يقرأُ، ممّا يحبُّ وممّا يكرهُ، ممّا يشتهي وممّا يعافُ، وحينَ تعلّمَ الكتابةَ أصبحَ ينسجُ أحلامَه ممّا يهمُّ بكتابتِه أو الحديثِ عنْه، وحينَ كانَ يبدو لمنْ حولَه أنّه يرتجلُ ما يقولُ كانَ في حقيقةِ الأمرِ يقرأُ مما كان ينسجُه وهو مغمضُ العينينِ كلّما خلا إلى نفسِه أو آوى إلى فراشِه.

تناوشتْ مخيّلَتي طفلًا الحكاياتُ، ما وقفتُ على البحرِ

إلا غمرتْني واحدةٌ، وما خرجتُ إلى البرِّ إلا اقتادتني الأخرى بعيدًا عمّنْ همْ حولي.

أقفُ على الشّاطئ وقفةَ المنبهرِ بأمواجِ البحرِ، أدنو منه وأتراجعُ عنه، كلّما مدّتْ موجةٌ أذرعَها إليَّ فررتُ إلى الرّملِ، على الأفقِ ألمحُ طيفَ سفينةٍ، تتلاعبُ بها الأمواجُ ثمّ تبدأُ تغرقُ شيئًا فشيئًا، أرى رجالًا يركضونَ من جانبٍ فيها إلى جانبٍ، وآخرينَ يتساقطونَ في البحرِ فتتلقفهم أمواجُه وحيتانُه، أسمعُ رجلًا يصرخُ:

– صَدَقْ حلمكْ يا أمّ حسينْ.

كانتْ جدّتي قدْ حكتْ لي كيفَ أنّ زوجةَ خالِها تشبّثتْ به صباحَ سفرِه بحرًا تحاولُ أنْ تثنيَه عن رحلتِه تلك:

– واللهْ يا أبو حسينْ إني حلمتْ إنّه ساعيتْكم بتغرقْ.

– صلّي على النّبي يا شيخةْ، واخزي ابليسْ.

– الله يخلّيكْ، على شاني وعلى شانْ عيالَكْ بعذرةْ من هذي الرّوحةْ.

– وايش اقول للرجالْ اللي أنا مسافرْ معاهم؟ بطّلتْ منْ شانْ أمّ عيالي حِلمتْ؟ عيبْ، واللهْ عيبْ، واللهْ إنّي أصيرْ ضحكةْ في فميهم.

أصرَّ أبو حسينٍ على السَّفرِ، ودّعته زوجتُه وهي تعرفُ أنّه لنْ يعودَ إليها:

- سامحْني يا ابو حسينْ، سامحْني، وإنتَ مسامحْ ومحلَّلْ.

خنقتْها العبرةُ، جلسَتْ على عتبةِ البابِ، ترقبُه وهوَ يحثّ الخُطا كمنْ يحملُ نعشَه ويمضي مختارًا إلى قبرِه، وكانَ ذلكَ آخرَ العهدِ به.

أحدّقُ في الأفقِ، تختفي السّفينةُ، يختفي الرّجالُ الذين كانوا يركضونَ فوقَها ولا أعودُ أسمعُ صوتَ أبي حسينٍ، تخنقني العبرةُ، وحينَ تلامسُ قدميَّ الأمواجُ أبتعدُ عن البحرِ.

أقفُ على البرِّ، يبتعدُ عنّي رفاقُ الرّحلةِ والطّفولةِ، يركضونَ حفايا متعجّبينَ من انغراسِ أقدامِهم في الرّمالِ النّاعمةِ، يرفعونَ رؤوسَهم لأسرابِ الطّيورِ المهاجرةِ، يمدّونَ أصواتَهم حبلًا إلى السَّماءِ:

- حبْلْ أبويا أطولْ من حبْلَكْ.

تنظمُ تلكَ الطّيورُ خطًّا طويلًا وتمضي حتّى تغيبَ في الأفقِ، يحلّقُ الأطفال وراءَها، وأبقى وحدي مقيّدا إلى الأرضِ لا تكادُ تحملني قدماي.

أراهـمْ مـن بعيـدٍ يقتربـون، يحملونـه وهـو يئـنُّ مـن الألمِ، سـاقُه، حيثُ عضَّـه الثّعبـانُ تقطرُ دمًـا، يـصرخُ بهـم:

– وقّفوا، نزِّلوني.

– ما فيه وقتْ، نبغى نَلحقْ جويبرْ، ما عادْ هو بعيدْ.

– نزِّلـوني، مـا عـادْ يفيدني جويبرْ، السِّـمْ سرى في جسـمي، نزّلـوني وقبّلوني.

– أذكر اللهْ يا عويمر.

– نزِّلوني وقبّلوني تراني أحسْ بالموت.

وضعـوه عـلى الأرضِ، وسّـدوه عمامتَـه باتجـاهِ القِبلـةِ، نطـقَ الشّـهادتينِ ثـمّ أغمـضَ عينيـه، لفُّـوه في عباءتِـه وعـادوا يحملونـه ويمضـون منكسِريـن عـلى مهـلٍ.

أجثـوا عـلى ركبتـيّ، أشـعرُ بالسّـمِّ يـسري في أطـرافي، وأراهـم يختفـونَ حاملـينَ جثمانَـه وراءَ الأفـقِ مثـلَ سربِ الطّيـورِ المهاجـرةِ.

كنتُ أرى الأحداثَ تمرُّ أمامَ عينيَّ وأصواتُ منْ ماتـوا تطرقُ أذنيَّ كلّما استعدتُ القصصَ التي رووها لي، كأنّما كلُّ كلمةٍ في تلك الحكاياتِ قمقمٌ إذا ما فضّيتُ ختمَه انسلَّ منه ما هو مخبوءٌ فيه، رجالٌ يحتزمون بالحياةِ والموتِ، صحارى

تتنادى في جنباتِها الرّمالِ، وديانٌ إذا ما جنَّ الليلُ تمشّتْ فيها الجنُّ والذئابُ، بحارٌ لا شواطئَ لها، وغرقى كلَّما حسرَ الموجُ عنهم الماءَ بانتْ جثثُهم وقد نهشتْ أطرافَها حيتانُ البحرِ..

شيّدوا ذاكرتي على عرشٍ من عظامٍ يسبحُ على بحرٍ من الدم، أصبحتْ مخيّلتي مقبرةً كبيرةً، أصبحتْ المقبرةُ غرفةً سريّةً في بيتِنا لا يعرفُ بابَها أحدٌ سوايَ، ألجُها كلَّما استلقيتُ منتظرًا النّومَ، أنبشُ قبورَها قبرًا قبرًا، أنفضُ التّرابَ عن أكفانِ الموتى وأفتّشُ في أجسادِهم عن طعناتٍ ماتوا بها أو بقايا جدريٍّ نهشَ أجسادَهم قبلَ الموتِ، كانَ الموتُ يتجوّلُ في أرجاءِ البيتِ، ألمحُ ظلَّه على الجدارِ يلوحُ في ضوءِ الفانوسِ وأسمعُ وقعَ أقدامِه حينَ نطفيءُ الفانوسَ للنّومِ.

- آخذْ أمّكْ ولّا أبوكْ؟

هكذا يسألُني الموتُ كلَّما مرَّ بي قبلَ النّوم، أشعرُ برعبٍ يجتاحُ مفاصلي، ألوذُ بالصّمتِ، وأدفنُ رأسي في اللحافِ.

- آخذْ أمّكْ.

- لا.

- خلاصْ، بلاشي أمّكْ، آخذ أبوكْ.

- لا، لا، اللهْ يخلّيكْ، لا.

أضعُ المخدَّةَ على أذني، أشعرُ بالموتِ يجلسُ على طرفِ الفراشِ، يقلّبُ يديهِ وهو يفكّرُ منْ سيأخذُ أوّلًا: أمّي أو أبي.

كنتُ كلَّما فرغَتْ جدّتي من حكاياتِها التي كانتْ تحكيها لي كلَّ مساءٍ أسألُها عن أولئكَ الرجالِ والنّساءِ الذين طالما سمعتُها تتحدّثُ عنهم ولمْ أرَهم قطْ، وكانَ جوابُها الذي لا يتغيّرُ:

- عندْ ربّي

ولمْ أكنْ أستوعبُ معنى ما تقولُ.

- طيّبْ، متى يرجعون من عندْ ربّي؟

- خلاصْ ما يرجعونْ، إحنا بعدينْ نروّحْ لهم.

- نروّحْ لهمْ عند ربّي؟

- إيوا.

- طيّب متى نروّحْ لهمْ؟

- بعد عمرْ طويلْ، كلّنا نقضي أيّامنا ونرجعْ لربّي.

- يعني إحنا كنّا عندْ ربّي؟

- إيوا كنّا عندْ ربّي

- طيِّبْ ليشْ مشينا من عندْ ربّي، مو أحسنْ لو قعدْنا عندُه؟ بدلْ منْ إننا نجي ونرجعْ ثاني؟

- جينا منْ شانْ نعبدُهْ.

- طيِّبْ ليشْ ما قعدْنا نعبدُه وإحنا قاعدينْ عنده؟

ولمْ يكنْ يريحُها من أسئلتي إلّا موتى جددٌ تقودُهم إلى مناياهم في الحكاياتِ، وتختتمُ كلَّ حكايةٍ:

- الله يرحمْنا إذا سرنا إلى ما ساروا إليهْ.

كنتُ أشعرُ بحيرةٍ شديدةٍ حينَ كانَ أبي يصطحبُني صباحَ العيدِ لزيارةِ المقبرةِ، نخلعُ أحذيتَنا ويجوسُ بي بينَ شواهدِ القبورِ، يحذِّرني بينَ الفينةِ والفينةِ:

- إنتبهْ، تعالْ منْ هنا، لا تدعسْ على القبرْ.

يقودُني إلى قبورٍ تكادُ تنطمسُ معالُمها، يشيرُ إلى واحدٍ منها:

- هذا قبرْ جدّكْ عبدالله أبو أمّكْ، اقرا عليهْ الفاتحةْ.

- هوّ جدّي عبدَالله هنا في القبرْ؟

- إيوا .. اقرا عليهْ الفاتحةْ.

- بسْ جدّتي قالتْ لي هوّ عندْ ربّي.

- حبيبي، اقرا الفاتحةْ وخلّينا نمشي.

أقرأُ الفاتحةَ وبيدٍ مرتجفةٍ أمسحُ على وجهي..

- طيّبْ وينْ قبرْ جدّي سعيدْ نقرا عليهْ الفاتحة؟

- قبرْ جدّكْ سعيدْ في الدّيرةْ.

- ليهْ ما نروحْ الدّيرةْ نقرا الفاتحةْ على قبرهْ؟

- الدّيرةْ بعيدةْ يا حبيبي.

- بسْ حرامْ، كذا ما أحدْ يقرا الفاتحةْ على قبرهْ في العيدْ.

- نقرا عليهْ وحنّا هنا وتوصَلْ له.

- يوصّلْها له جدّي عبدالله؟

- توصّلها لهْ الملايكةْ إنْ شا اللهْ.

- طيّبْ ليشْ ما يوصّلها جدّي عبداللهْ لهْ؟

- لأنّهمْ ما يعرفونْ بعضْ.

- ليشْ ما يعرفونْ بعضْ؟

- خلاصْ يا بابا .. أسئلتك كثيرةْ.. اقرا الفاتحةْ على جدّكْ وخلّينا نمشي.

- طيّبْ جدّي سعيدْ ميّت لحالهْ في الدّيرةْ؟ ما أحدْ معاهْ؟

- لا .. جماعتُه وعيالُ عمّه ميّتينْ معاهْ.

- طيّبْ نقرا عليهمْ الفاتحةْ كمانْ؟

- إيوا .. اقراها

- وتوصّلها لهم الملايكة؟

- توصّلها لهمْ الملايكةْ.

وقبلَ أنْ أكملَ قراءةَ الفاتحةِ كانَ يقودُني خارجَ المقبرةِ.

كلُّ أولئكَ الذين زرتُ قبورَهم في طفولتي وقرأتُ عليهم الفاتحةَ بدأوا يزورُونني حينَ تقدّمتُ في السّنِّ، وكانتْ المسافةُ بين يقظتي ونومي قدْ ضاقتْ، أصبحتُ في شكٍّ من قدرتي على التّمييز بينهما، أتوهّمُ أحيانًا أنّني أحلمُ وأنّ أحفادي وأبنائي الذين أسمعُ ضحكاتِهم في الغرفةِ المجاورةِ أو يجلسونَ عندَ رأسِ سريري أطيافُ حلمٍ عابرٍ، وحينَ كنتُ أحدّثُ أبنائي وبناتي عن زياراتِ بعضِ أصدقائي لي كانوا يستغربونَ من حديثي ويؤكّدون لي أنَّ أحدًا لم يزرْني وأنّ تلك الزياراتِ مجردَ أحلام، أتشبّثُ بما أقولُ ثمّ أسلّمُ لهمْ بما يقولونَ حينَ يذكّرونَني أنَّ من قلتُ إنّهم زاروني من الأقاربِ والأصدقاءِ توفّوا منذُ أمدٍ بعيدٍ.

أصبحتْ الأحلامُ جزءًا من حياتي اليوميّةِ المقسّمةِ بينَ يقظةٍ تشبهُ النّومَ ونوم يشبهُ اليقظةَ، بتُّ أنتظرُ المساءَ كي ألتقيَ في الحلم بمنْ أفتقدُهم من الأهلِ والأصدقاءِ، وبمرورِ الأيام بدأتُ أشعرُ أنّني قادرٌ على التّحكّم في أحلامي، فتفكيري قبيلَ النّومِ في بعضِ الأصدقاءِ كفيلٌ أنْ يستدعيَهم إلى أحلامي، وإذا ما قطعتْ اليقظةُ حلمًا من أحلامي فإنَّ تفكيري في تفاصيلِ ما رأيتُ منه كفيلٌ بأنْ أستعيدَه إذا ما غفوتُ فأستكملَ ما انقطعَ منه، ولا أستبعدُ

أنّ ما كنتُ أعتقدُه من تحكّم في أحلامي باستحضارِ من أودُّ استحضارَه أو استكمالِ ما أتحسّرُ على انقطاعِه لا يزيدُ عن استغراقٍ في أحلامِ اليقظةِ، وأنّ ما أعتقدُه أحلامًا لا يزيدُ عنْ أنْ يكونَ ما بتُّ أستمتعُ بهِ من أحلامِ اليقظةِ خلالَ انتظاري النّومَ، غير أن ذلك كلَّه لم يكنْ مهمًّا بعد أنْ تشابَه كلُّ شيءٍ ولم أعدْ أفرِّقُ على نحوٍ دقيقٍ بينَ أطيافِ أحلامي وما يدورُ حولي من أحداثٍ، ولمْ أعدْ أميِّزُ بين ذكرياتي وما عشتُه من وقائعَ وتخيّلاتي وما تخاتلني به من أوهامٍ.

تراودُني الأحلامُ كما تراودُني الوقائعُ، أصبحَ نهاري مثلَ ليلي مسكونًا بلمحاتٍ عابرةٍ تتراءى لي، أصواتٌ خافتةٌ لا أكادُ أتبيَّنُها، صريرُ أبوابٍ تنفتحُ ثم تنغلقُ، خطى تتقدَّمُ من البابِ ثم لا أحدَ يدخلُ، وحينَ أتحاملُ على نفسي وأفتحُ البابَ لا أجدُ أحدًا، ضوءٌ يسطعُ في سقفِ الغرفةِ، همهمةٌ مبهمةٌ تتردَّدُ في أذني، وظلالٌ تلوحُ على الجدرانِ.

أخذ الأمرُ طابعًا مختلفًا ذاتَ ليلةٍ حينَ كنتُ أرزحُ تحتَ وطأةِ الحُمَّى ... سمعتُ صوتَه يدنو منِّي ويدٌ تحطُّ على رأسي منْ فوقِ اللحافِ:

- سلاماتْ

- أبويا؟

هتفتُ فزعًا ورميتُ عن جسمي اللحافَ .. جلستُ، تلفّتُّ حولي ولمْ أجدْ أحدًا، اضطجعتُ ثانيةً، وحينَ كادَ يأخذُني النَّومُ سمعتُ صوتَه ثانيةً:

- قومْ ترى الزُّكمةْ علَّةْ الرُّخومْ.

- أبويا؟

هتفتُ ثانيةً، شعرتُ بهِ يجلسُ على طرفِ السَّريرِ:

- إيوا أبوكْ.

لمْ أستطعْ أنْ أسألَه كيفَ جاءَ وقدْ مرَّتْ على وفاتِه عقودٌ منَ الزَّمنِ، تذكَّرتُ أنَّه كانَ قد فقدَ القدرةَ على النّطقِ قبلَ وفاتِه بسنةٍ بعدما استؤصلتْ حنجرتُه المصابةُ بورمٍ، قالَ للطّبيبِ قبلَ أنْ يسريَ المخدّرُ في جسمِه:

- دكتور إذا شلتْ حنجرتي ركِّبْ لي مكانَها ماسورةْ اثنينْ بوصةْ منْ شانْ أقدرْ أبلعْ الأكلْ.

ضحكَ، وسرقَ المخدِّرُ وعيَه وضحكتَه، حينَ استيقظَ كانَ بلا حنجرةٍ ولا صوتٍ، قالَ لي الطبيبُ:

- إيهْ الجبروتْ ذا؟ قاعدْ ينكّتْ وهوّ عارفْ إنّه راحْ نسوي له عمليةْ نسبةْ نجاحها قليلةْ، ويمكنْ يموتْ فيها.

كنتُ قد أخفيتُ عنه ما أنبأني به الطّبيبُ من إصابتِه بورمٍ في الحنجرةِ، وحينَ عرفَ ذلكَ من الطَّبيبِ نفسِه سألَني:

- ليشْ ما قلتْ لي إنّه عندي سرطانْ لّما قالْ لكْ الدَّكتور؟

- والله يا أبويا ما عرفتْ ايشْ أقولْ لك.

- تحسِّبْني خايفْ من الموتْ؟

- كلّنا نخافْ من الموتْ يا ابويا.

- شوفْ يا سعيد، أنا عمري ما بتّ آمنْ من الموتْ، الموتْ ما ينتظرْ سرطانْ منْ شانْ يجي، كانْ يمكنْ يجيني في صحّتي أو في مرضي، عمري ما كنتْ في أمانْ منّه، ليشْ أخافْ منّه هالحينْ.

عادَ يوقظُني من وطأةِ الحمّى، هتفتُ بهِ:

- الحمدْ لله رجعْ لكْ صوتَكْ.

- الحمدْ لله، رجعْ لي كلّ شيْ، الحياةْ تاخذْ منّا والموتْ يرجّعْ لنا.

- ما فهمتْ.

- صعبْ تفهمْ.

تجاسرتُ قليلًا، رفعتُ عن وجهي اللحافَ ولمْ أجدْ أحدًا، أخذتُ أجولُ بنظري في أرجاءِ الغرفةِ، دخلتْ ابنتي، سألتُها عمّا إذا كانَ أحدٌ من أبنائها في الغرفةِ فأخبرتني أنّهم جميعًا خارجَ البيتِ:

- طيّبْ شفتي أحدْ خارجْ من الغرفةْ قبلْ ما تدخلين؟

- لا .. ليهْ؟

- أبويا كانْ هنا.

- جدّي رحمةْ اللهْ عليه؟

- إيوا جدّكْ اللهْ يرحمُه كانْ هنا، وكانْ يتكلّمْ معايا.

- سمّي بالرّحمنْ أبويا.. يمكنْ كنتْ تحلمْ.

- لا، ما كنتْ أحلمْ.. كنتْ صاحي.

- أجلْ يمكنْ كوابيسْ الحمّى.

- شوفةْ أبويا وسماعْ صوتُهْ عمرَها ما تكونْ كوابيسْ.

- سامحْني ما أقصدْ .. أنا قصدي كانْ يتهيأ لكْ.

تعودتُ بعدَ ذلكَ على مرورِه كلّما بقيتُ وحدي، كنّا

نتحدَّثُ طويلًا وكانَ يختفي فجأةً إذا ما شعرَ بقدوم أحدٍ، وحينَ كانَ أبنائي وأحفادي يسألونني معَ منْ كنتُ أتحدَّثُ كنتُ أنكرُ ذلك، انقطعتْ عنّي زياراتُه عدةَ أيامٍ وحينَ عادَ ذاتَ ليلةٍ بادرتُه:

- وحشتني.. لكْ كمْ ليلةْ ما جيتْ.

- جبتُهم لكْ معايا.

- منْ؟

- جدّانَك.

- جدّاني؟

- إيوا اللي كنتْ أكلّمكْ عنهم وأقولْ لكْ أخبارهم.

- جبتهم من الدّيرة؟

- لا.. من راسك.

لاحتْ على شفتيهِ ابتسامةٌ ساخرةٌ، طالما اختصرتْ المسافةَ بين فطنتِه وغفلتي، وأكملَ يقولُ:

- جبتُهم من الدّيرةْ.

- معقولْ من الدّيرةْ، مو منْ راسي.

- فكّرْ شويّةْ .. الدّيرة هيَّ أصلًا فينْ؟

قالَها باقتضابٍ كمنْ ينهي حوارًا عقيمًا لمْ يردْ له أنْ يشغلَه عما جاءَ من أجلِهِ ثمَّ أشارَ إلى الجدارِ..

كانتْ ظلالُهم تلوحُ على الجدرانِ، كلّما تبيَّنتْ ملامحُ واحدٍ منهم أشارَ إليهِ أبي فدنا منّي، أحاطوا بي، رجالٌ سبعةٌ، تعالتْ أصواتُهم، لمْ أكنْ أتبيَّنُ منها في البدءِ غيرَ همهمةٍ تعلو شيئًا فشيئًا، أخذتُ أسمعُ صليلَ سيوفٍ، طلقاتِ رصاصٍ، صرخاتٍ:

- ذبحتُهْ.

- خذْها وانا ولدْ أبوي.

- حلفتْ أقطعُهْ واحطُّه في فمُّهْ.

- لا يا سعدْ.. لا يسخطْك ربّي.

- القوَّةْ لا باركْ الله في الضَّعفْ.

- يمينْ جَزْمِيَّة تقطعْ المالْ والذّرِّيةْ.

- الموتْ خيرْ من الذِّلةْ.

- دَحيتْ رمِّتُهْ في الغارْ ورضَمتْ عليه بالحجارْ.

- تكحّل بريشُهْ.

يهوي غرابٌ كانَ قدْ خطفَ قطعةَ لحمٍ منْ يدِ صبيٍّ في سوقِ الحِزاميّ بوادي الصّفراءِ وتتمرّغُ معه في التُّرابِ سخريةُ ذلكَ الرّجلِ الذي هتفَ شامتًا:

- الغرابْ خطفْ لحمةْ السِّريحي.

- واللهْ لوْ ما الخوفْ من اللهْ كانْ لحّقتَكْ إيَّاهْ.

كان الغبارُ يملأُ صدري وصهدُ شمسٍ لا أعرفُ منْ أينَ يجيءُ، حاولتُ أنْ أنهضَ منْ فراشي ولمْ استطعْ، كنتُ عاجزًا عن الحركةِ، رأيتُهمْ يدورونَ حولي، يقتربونَ منّي، يهمهمونَ، كنتُ أشعرُ بدفءِ أنفاسِهم على وجهي، أخذوا يجثمونَ عليَّ واحدًا تلوَ الآخرِ، لمْ أعدْ قادرًا على التّنفسِ ولمْ أعدْ أشعرُ بشيءٍ..

سمعتُها تنادي:

- أبويا.. أبويا..

حاولتُ أنْ أجيبَ ولمْ أستطعْ، كشفتْ اللحافَ عنْ وجهي، لمْ أستطعْ أنْ أفتحَ عينيَّ، صرختْ:

- الحقوني أبويا ما يتحرَّكْ.

سمعتُ وقعَ أقدامِهم يدخلون، وضعَ أحدُهم أذنَه على صدري:

- ماتْ؟

- فالُ اللهْ ولا فالَكْ.

- لا، قلبُه يدُقْ، خلّينا ناخذُهْ المستشفى بسرعةْ.

-أحسنْ لو نطلبْ الإسعافْ.

عادتْ الأصواتُ تداهمُني، رغاءُ إبلٍ، ثغاءُ شياهٍ، عواءُ ذئابٍ، فحيحُ أفاعٍ وأصواتُ رعاةٍ يتنادَونَ،غبارٌ يرتفعُ إلى عنانِ السَّماءِ، هديرُ سيولٍ وقعقعةُ حجارةٍ تتساقطُ، أطفالٌ يصرخونَ ونساءٌ يستغثنَ:

- القومْ..القومْ.

- يا لطيفْ ألطفْ بنا.

- راحْ الحلالْ.

- انتبهي للولدْ.

صداعٌ عنيفٌ، ألمٌ يشبهُ سكّينًا يخترقُ صدري ولمْ أعدْ أشعرُ بشيءٍ.

محمولًا على بعيرٍ كنتُ، كلّما ملتُ منْ على سنامِه أصلحوا من جلستي عليهِ، قفزَ أحدُهمْ على مردفةِ البعيرِ، طوّقَ صدري بذراعَيهِ كيْ لا أسقطَ:

- يدَّكْ لا تجي على مكانْ الرَّصاصةْ.

نبَّهـهُ أحدُهـمْ فطـوَّقَ بيـدِهِ خـصري، ومـضى البعـيرُ بي وبهـمْ إلى حيـثُ لا أعلـمُ:

- وصيَّتْكْ عيالي.

- تراهمْ في رقَبْتي، بسْ تراكْ بخيرْ.

كانـتْ تلـكَ هـي المرَّةَ الثَّانيـةَ التي أوصيهِ فيهـا بأبنائي، كنتُ قدْ أوصيتُه مـنْ قبـلُ وذلـك عشيَّةَ اتفاقِنا على أنْ نغيرَ علـى القريـةِ قبـلَ أذانِ الفجـرِ، قـالَ عقيدُنـا:

- أهجدوهـمْ قبـلْ طَلْعـةْ الشَّـمسْ، الرِّجَّـالْ اذبحـوهْ، والحَـبْ أنثـروهْ، والبيـتْ أهدمـوهْ، ولا تقربـونْ الحريـمْ

كانَ السَّـابر قـد قـضى ليلَـه يرقـبُ القريـةَ مـن عـلى رأسِ تلّـةٍ تطـلُّ عليهـا، حلَّـقَ غـرابٌ وحـطَّ عـلى كتفِـه، تهامسْـنا:

- لا يكونْ نامْ؟

سـمعَ همسَـنا، حـرَّكَ يـدّه قليـلًا لكـي نطمئـنَّ إلى يقظتِـه، وطـارَ الغـرابُ.

- خير؟

سـألني ابـنُ عمّـي حيـنَ أوصيتُـه بأبنائـي في المرَّةِ الأولى،

أخبرتُه أنّي حلمتُ ونحنُ نتربَّصُ بالقريةِ التي اتفقنا على أنْ نداهمَها فجرًا بأنَّ رجلًا منْ أهلِ تلكَ القريةِ يخرجُ منْ بابِ بيتِهِ عاريًا يحملُ بندقيَّتِهِ، يطلقُ عليَّ النارَ فيقتلُني:

- أذكرْ اللهْ، تراكْ إنتْ اللي بتذبحُهْ.

رأيتُ ذلكَ الرَّجلَ حينَ داهمْنا تلكَ القريةَ، رأيتُه، كما رايتُهُ في الحلمِ، عاريًا يخرجُ من بابِ بيتِه وفي يدِه البندقيّةُ، أطلقتُ عليهِ النَّارَ وشعرتُ برصاصةٍ تمزِّقُ صدري.

- تراكْ ذبحتُهْ.

قالَ لي ابنُ عمّي وكانَ يمسكُ بي كيْ لا أسقطَ من على البعيرِ.

-الله يغفرْ لكْ، أظنْ إنَّكْ ذبحتُهْ على جَنابَةْ.

فتحتُ عينيَّ، سمعتُ جلبةَ أصواتٍ، رأيتُ أضواءً تحيطُ بي وضوءً أحمرَ يتلألأُ في الأفقِ.

- تعدّينا بابْ المستشفى.

- الإسعافْ بيدخلْ منْ بابْ الطَّواري.

كأنّي سمعتُ ابنتي وحفيدي يتحدَّثان، ولمْ أعدْ أعي شيئًا. ولا أعرفُ أينَ أنا.

لمْ أعـدْ أغمـضُ عينـيَّ بعـدَ تلـكَ الليلـةِ إلّا وسـمعتُ جلبتَهـمْ، كأنّـما هـمْ باتـوا يسكنونَ في قـاعِ جمجمتي، ولا أكادُ أفتـحُ عينـيَّ إلّا رأيـتُ خيـالاتٍ لهـمْ تلـوحُ عـلى الجـدرانِ أو تطـلُّ مـن سـقفِ الحجـرةِ.

مدَّ لي يدَهُ، غارقًا في العتمةِ كانَ، لمْ أستبنْ منهُ غيرَ تلكَ اليدِ ولحيةٍ كثَّةٍ، وأمرني أنْ أنهضَ، أمسكتُ بيدِهِ وغادرتُ سريري، كدتُ أسقطُ حينَ تعثَّرتُ بعتبةِ البابِ، لستُ أعرفُ كمْ كانتْ السَّاعةُ من الليلِ ولكنَّهم كانوا جميعًا يغطّونَ في النَّومِ، قادَني خارجَ البيتِ:

- وينْ آخذني؟

- الدِّيرةْ.

مشى معي خطواتٍ ثمَّ أفلتَ يدي منْ يدِه واختفى في الظَّلام، تلفتُّ فلمْ أجدْ له أثرًا، سمعتُ صوتَ ذئبٍ يعوي، شعرتُ بالفزعِ غيرَ أنّي طمأنتُ نفسي أنَّه صوتُ كلبٍ.

- أبويا عندنا ذيابْ في البرحةْ؟

والبرحةُ لمْ تكنْ أكثرَ من أرضٍ بيضاءَ تتوسّطُ بيوتَنا في حيِّ الرّويسِ يتّخذُها الأطفالُ ملعبًا لهم، وحينَ يهطلُ المطرُ تتحوَّلُ إلى بحيرةٍ يخوضونَ فيها، وإذا ما جفَّ الماءُ صنعوا من صلصالِ طينِها ما يشتهونْ.

- لا حبيبي، جدَّة ما فيها ذيابْ.

- طيِّبْ الذِّيابْ وينْ تعيشْ؟

- في الدِّيرةْ.

كانتْ أمنيتي أنْ أرى ذئبًا وأنْ يصبحَ ذلكَ الذئبُ صاحبي مثلَما كانَ صاحبًا لعامرٍ، ولمْ أكنْ أعرفُ أيهما حبَّب إليّ الآخرَ، عامرٌ أو الذئبُ، كنتُ لا أملُّ أطلبُ منْ أبي:

- أبويا، احكي لي قصّةْ عامرْ والذيبْ.

- حكيتها لكْ البارحْ.

- أبغى أسمعْها ثاني.

- أقولْ لكْ حكايةْ ثانيةْ.

- لا، أوّلْ شيْ قولْ لي حكايةْ عامرْ والذيبْ، وبعدَها قولْ لي حكايةْ ثانيةْ.

ضاقتْ جماعةُ عامرٍ بعنفوانِه، كانَ سيفُه ينوبُ عنه كلّما شجَرَ خلافٌ بينه وبينَ أحدٍ نازعَه وِرْدَ ماءٍ أو جدادَ نخلةٍ، ضاقَ قومُه بهِ وضاقَ بهم، خرجَ عنهم متَّخِذًا من القفرِ مسكنًا، وحيدًا إلّا منْ عنفوانِه وسيفِه وجعبةِ سهامٍ توفِّرُ له من الصَّيدِ ما يقيمُ به أودَه، يتقاسمُه مع ذئبٍ جمعَه الليلُ والقفرُ والجوعُ به.

عادَ عامرٌ إلى قريتِه بعدَ أنْ سكتَ عنه الغضبُ وسكتَ

عن جماعتِه اللومُ، تبعَه الذِّئبُ متّخذًا من أطرافِ القريةِ مرتعًا له، وشكا رعاةُ الغنمِ منه:

- ما كفانا عامرْ جانا خَوي عامرْ.

تضاحكوا، وأصبحَ اسمُ خَوي عامرٍ علمًا على الذِّئبِ، ويومَ أنْ تمكّنَ أحدُ رجالِ القريةِ من قتلِه عادَ إلى مجلسِ القبيلةِ متباهيًا:

- ذبحتْ خَوي عامرْ.

وألقى بجثةِ الذِّئبِ أمامَهم، اعتدلَ عامرٌ في جلستِه:

- قولْ ذبحتْ الذِّيبْ.

- لا واللهْ، ذبحتْ خَوي عامرْ.

- يا شيخْ تراكْ ذبحتْ كلبْ من الكلابْ.

- رضيتْ ولّا غضبتْ، تراني ذبحتْ خويّكْ.

وقبلَ أنْ يكملَ الرّجلُ كلمتَه كانَ سيفُ عامرٍ يُلحقُه بالذّئبِ الذي قتلَه.

يختتمُ أبي تلكَ الحكايةَ ببيتٍ من الشّعرِ قالَه عامرٌ حينَ ثأرَ لخَويِّه الذِّئبِ ممن قتلَه:

- أبويا إنتَ تعرفْ عامرْ ؟

- لا، عامرْ ماتْ من زمانْ، قبلْ ما أنولدْ.

- أنا نفسي أشوفْ ذيبْ، واتصاحبْ عليه زيْ عامرْ.

- اللهْ يكفيكْ شرّهْ.

- ليه ؟ هوَّ الذّيبْ شرّيرْ؟

- إيوا ياكلْ الغنمْ ويعدي على النّاسْ

- طيِّبْ ليش تقولْ لي خلِّيكْ ذيبْ؟

كانـتْ منزلـةُ الذّئـبِ أعـلى منـازلِ التَّرقّـي في سـلالةِ الكائنـاتِ، غايـةَ نهـر الحيـاةِ المتدفِّـقِ الـذي يجمـعُ بيننـا وبينهـا، يعقـدُ بيننـا وبينَهـا نسبًـا وعمـرًا مشتركًا، يكشـفُ مـا يستـرُ منهـا فينـا ومـا يستـرُ منّـا فيهـا، يعيدُنـا إليهـا ويعيدُهـا إلينـا، يـومَ كنّـا نعـدو معهـا في السِّـهولِ ونصعدُ قممَ الجبـالِ نبحـثُ عـن كهـوفٍ تؤوينـا مـن زمهريـرِ الـبردِ، نتعلـمُ منهـا كيـفَ نحيـا عـلى هـذه الأرضِ، بيننـا وبينهـا حيـاةٌ مشـتركةٌ وتاريـخٌ مشـتركٌ نسـتعيدُه فنصبـحُ ذئابًـا حـينَ نعـرفُ كيـفَ نصطـادُ فرائسَـنا، وجِمـالًا حـينَ نصبرُ عـلى الشّـدائدِ، وثعالـبَ حـينَ نجيـدُ المكـرَ، وحمـيرًا حـين نُسـتَغضبُ فـلا نغضـبُ، وكلَّـما توهّمْنـا أنّنـا ارتقينـا عليهـا في سـلّمِ الكائنـاتِ أعادتْنـا كلماتُنـا إليهـا تُذكِّرُنـا مـا نسـيناه منهـا وتكشـفُ عـن سرِّهـا المخبـوءِ فينـا.

تلفَّتُّ لعلّي أرى ذلكَ الذي قادَني خارجَ البيتِ فلم أرَ أحدًا، اقتربَ منّي الصّوتُ، لم يكنْ نباحَ كلبٍ، عواءَ ذئبٍ كانَ دونَ أدنى شكٍّ، كانوا قد حذَّروني:

- لا يطاكْ الليلْ في حَرَّةْ واقمْ تراها مسبعةْ.

تلفَّتُّ حولي، لمْ أجدْ شجرةً ألجأُ إليها كما فعلتُ عندما داهمتني ثلاثةُ ذئابٍ في وادي الفرعْ، ظلَّ أكبرُها يحفرُ تحتَ الشَّجرةِ وكأنّما يريدُ اقتلاعَها، ثم يرفعُ رأسَه يعوي وعيناه شرارتانِ، ولم ينقذْني من تلك الذِّئابِ إلا طلوعُ الشَّمسِ وارتفاعُ أصواتِ الرّعاةِ.

سندتُ ظهري إلى صخرةٍ في الوادي ورأيتُه يقتربُ منّي، عيناه شرارتانِ تتّقدانِ، أقعى ورفعَ رأسَه يعوي، أيقنتُ أني هالكٌ لا محالةَ، تلعثمَ لساني وأنا أنطقُ الشهادتينِ وأستسلمُ لقدري.

- يا عمْ، إنتَ طيّبْ؟

أفقتُ على صوتِ جارِنا يقتربْ منّي، وكلبٌ يجري مبتعدًا:

- بخيرْ .. بخيرْ

- وينْ تبغى تروحْ في هذا الليلْ؟

ارتبكتُ وأنا أبحثُ عن جوابٍ، مدَّ يدَه إليّ:

- تعالْ معايا.

زعمتُ ونحن في طريقِنا إلى البيتِ أنّي خرجتُ للحاقِ بصلاةِ الفجرِ فأخبرَني أنَّ الوقتَ لا يزالُ مبكّرًا على الصَّلاةِ، قادَني إلى بابِ بيتِنا، تسللتُ إلى غرفتي، آويتُ إلى فراشي وصوتُ نباحِ الكلبِ الذي يشبه عواءَ الذّئب، أو عواءُ الذّئبِ الذي يشبه نباحَ الكلبِ لا يزالُ يتردّدُ في أذنيّ وعيناه شرارتانِ تتّقدانِ، أحكمتُ على جسمي الغطاءَ وطمأنتُ نفسي:

- الذّيابْ في الدّيرةْ .. جدّةْ ما فيها ذيابْ.. فيها كلابْ بسْ .

استيقظتُ متأخّرًا، كنتُ أرشحُ عرقًا وبقايا رجفةٍ من فزعِ البارحةِ لا تزالُ تسكنُ في صدري، نظرتُ إلى وجهي في المرآةِ، مشطورًا كنتُ إلى نصفينِ، بدويٌّ ينظرُ شزرًا إلى الحضريِّ ويهمهمُ: أفسدتْك المدينةُ ، تطيرُ فزعًا من كلابِها وأنتَ الذي كنتَ لا ترى في ذئابِ الدِّيرةِ إلا كلابًا قابلةً للاستئناسِ، تتذكّرُ كيفَ كانتْ تحيطُ بالغارِ الذي أويتَ إليهِ حينَ خرجتَ من منازلِكم قهرًا، تطعمُها ممّا تأكلُ وتقودُ إليكَ من فرائسِها ما تستعينُ به على العيشِ في ذلكَ الجبلِ الأجردِ إلّا من الموتْ..

كانتْ العشيرةُ تصُفُّ دلالَ قهوتِها على موقدِ النّارِ وتصُفُّ كلامها على مرجلٍ يغلي في الصّدورِ:

- يا راضي، تراكْ حمّلتنا اللي ما تحتمله الجبالْ.

- حمّلتكمْ عِزْ، ما أحدْ ياطا أرضكمْ، ولا مخلوقْ يقربْ من بعارينكمْ.

- ما أحدْ ينكرْ هذا، بسْ عشرينْ رقبةْ كثيرْ يا راضي.. أفنيتْ خلقْ اللهْ في اللي يستاهلْ واللي ما يستاهلْ، بالحقْ وبالباطلْ.

- القوّةْ، لا باركْ اللهْ في الضَّعفْ.

- القوّةْ في الحقْ، ما هي في الباطلْ يا راضي.

- خذْ لكْ في الباطلْ مِزراقينْ يجيكْ من الحقْ مِزراق.

- لا والله يا ولدْ عمّنا، هذا ما نرضاهْ.

قالهَا كبيرُهم وهو يمسحُ بيدِه على لحيتِه، نهضتُ واقفًا:

- عساكمْ ما رضيتمْ، خَلّكْ من فَسْفَسةْ الكلامْ وقولْ أيشْ اللي تبغاهْ.

- تشِدْ عانيكْ.

- لا واللهْ وأنا أبو عبيدْ، ما ني اللي يرضى الدِّنيَّةْ ولا اللي يحتمي بغيرْ سيفهْ.

- شَدّ العاني يا راضي ما هو دِنيّةْ، شَدْ العاني من علومْ العُرْبانْ وسلومْهمْ.

قالَها شيخٌ يدَّعي الحكمةَ وهو يرتشفُ متَكئًا ما تبقَّى منْ فنجانِ قهوتِه.

- إيش العاني؟

تساءلَ طفلٌ فأخبروه أنَّه لجوءُ المطلوبِ لقبيلةٍ غيرَ قبيلتِه للاحتماءِ بها، وعندَها توفِّرُ له تلك القبيلةُ الحمايةَ ولا تُطالَبُ قبيلتُه بجريرتِه.

- أنا أبو عبيدْ، ترى عانيّي في طرفْ سيفي، وما ذمّرتْ لأحدْ منكم، وإنْ ما احتجتوني تراني ما ني بحاجتْكم.

وثبتُ واقفًا، غادرتُهم، هتفوا بي:

- أذكرْ اللهْ يا راضي.

- ذكرتْ اللهْ قبلْ ما اعرفْكمْ.

لمْ ألتفتْ، قادتني قدماي لغارٍ في الحُليقِ، ألِفْتُه مذْ اتخذتُه مخبأً لجثثٍ من كتبَ اللهُ آجالَهم على يديَّ، لم يَعدْ غارًا، أصبحَ قبرًا كبيرًا ألِفتْه الذّئابُ، تجدُ ما يسدُّ رمقَها

فيهِ، وحينَ كرهتُ أنْ تصبحَ أجسادُ الموتى مِزَقًا تلتهمُها الذِّئابُ وجوارحُ الطّيرِ ردمتُ على مدخلِ الغارِ حجارةً، كلّما حملتُ إليهِ قتيلًا أزحتُها فإذا ما وسّدتُه جانبًا في الغارِ أعدتُها كما كانتْ.

قادني الظّلامُ والغضبُ إلى ذلكَ الغارِ، لم يكنْ قلبي ليخطئ مكانَه، أزحتُ الحجارةَ عن مدخلِه، رائحةُ الجثثِ المتعفِّنةِ، وديدانٌ كنتُ أشعرُ بها تتسلّقُ ساقيَّ حالتْ بيني وبينَ النَّومِ في الغارِ تلكَ الليلةَ:

- الصَّباحْ رباحْ.

توسَّدتُ حجرًا ونمتُ، قبلَ أنْ تشرقَ الشَّمسُ كنتُ أقلِّبُ تلكَ الجثثَ، أحملُ ما لا يزالُ منها رطبًا خارجَ الغارِ، وأجمعُ عظامَ قدامى الموتى:

- هذا يَصلَحْ غليونْ يا راضي.

قلتُ وأنا أتأمَّلُ عظمةَ ساعدٍ لمْ يبقَ عليها شيءٌ من اللحمِ، حاولتُ أنْ أتذكّرَ اسمَه ولمْ أستطعْ:

- رحمة الله عليه.

دعوتُ له بالرَّحمةِ وألقيتُ بعظمةِ السّاعدِ في زاويةٍ من الغارِ.

- اللهْ يرحمُهْ جدَّكْ راضي، غارُهْ معروف، غارْ راضي في الحليقْ على يمينَكْ وانتْ مسنِّدْ في وادي إليّ.

يقولونَ قطعَ الطّريقَ بعدَ أنْ خرجَ عنْ جماعتِه غاضبًا ولجأَ إلى الغارِ، اختفى خلقٌ كثيرٌ ممّن عبروا الوادي ولمْ يعرفْ أحدٌ لهم أثرًا، شكَتْ منه القبائلُ القريبةُ، وشكَّتْ قبيلتُه فيه، استدلّوا على الغارِ الذي يسكنُه، تسلّقوا إليه، أخذوهُ على حينِ غرّةٍ وشدّوا وثاقَه، حبسوه في خيمةٍ، امتنعَ عن الأكلِ، وبقيَ في القيدِ حتّى ماتَ، يقولون إنّه انسعرَ آخرَ عمرِه وتحدَّثوا عنْ أنّهم وجدوا عندَه في الغارِ عظامَ بشرٍ.

يروي والدي حكايةَ جدِّنا راضي، يأخذُ أمّي الفزعُ، تضربُ بيدِهاعلى صدرِها:

- يا لطيفْ، جدّكم نَمْنَمْ؟

يضحكُ وهو يمسحُ على رأسي:

- انتبهي لولدْكْ، يقولونْ تَطْلَعْ على سابعْ وِلْدْ.

ولمْ يكنْ يعرفُ أنّه بذلكَ قد أضافَ إلى شهواتي شهوةً جديدةً كادتْ تنفضحُ يومَ أنْ أثنيتُ على مذاقِ لحمٍ شهيٍّ أعدّته زوجتي:

- تسلمْ يدِّكْ يا عيّوشْ، طبخْك اليوم ممتازْ.

- طبخي كل يوم ممتاز، بس إنت اللي ما عاد تستطعَمْ الأكلْ.

- كمانْ اللحمْ طري جدًا، الواحدْ ياكلْ منّه كأنّه ياكلْ لحمْ طفلْ.

- واللهْ ما أظنْ اللي قالوا إنّه جدَّكْ راضي كانْ ياكلْ الأوادمْ ظلموه.

تذكرتُ فزعي من كلبِ البارحةِ، ألقيتُ على وجهي نظرةً أخيرةً في المرآةِ:

- واللهْ لو درى عنْك جدّكْ تبرّا منْكْ.

منْ خلفِ البابِ سمعتُ جلبةَ أصواتِهم:

- جدّي لهْ ساعةْ في الحمّامْ.

- طيبْ دقْ عليه البابْ، عساه طيِّبْ.

وقبلَ أنْ يقرعَ البابَ فتحتُه، خرجتُ وأنا أداري نظرةَ انكسارٍ عنهمْ.

أصبحتْ تلكَ الحالاتُ التي تنتابُني مدارَ تندّرِ أحفادي، وكنتُ لا أجدُ غضاضةً في أنْ أشاركَهم التندُّرَ،

كنتُ أستعيدُ معهم بعضَ تلكَ الحالاتِ التي تنتابُني كمَنْ يحاولُ أنْ يقبضَ على لحظةٍ شاردةٍ أو يحبسَ فراشةَ المخيّلةِ في قفصِ الكلامِ، كنتُ أستعيدُ معهم بعضَ تلكَ الخطراتِ التي تداهمني في منتصفِ المسافةِ بين الصّحوِ والنّومِ، أو تكمنُ لي في أحلامي التي تراودُني كلّما غفتْ عيني، وكنتُ لا أجدُ ضيرًا في أنْ أخترعَ خطراتٍ أخرى لمْ تكنْ قد مرّتْ عليَّ في صحوٍ أو منامٍ.

كنتُ إذا ما خلوتُ إلى نفسي أفكّرُ في ما اخترعتُه من خطَراتٍ، وفيما إذا كانتْ تلكَ الخطَراتُ تمثّلُ حضورًا قصْريًّا لأوهامي وأحلامي وتهيّؤاتي حتى وإنْ كنتُ أتوهّمُ أنّني أخترعُها بوعيٍ تامٍ بما أقولُه، وكانَ يُفزعني احتمالُ أنْ تكونَ قد بلغتْ بي الحالُ حدًّا أصبحَ فيه وعيي بما أقولُ مرتهَنًا لما هوَ مخبوءٌ وراءَ هذا الوعيِ.

كنتُ كثيرا ما أتعمّدُ الخلطَ في حديثي معهم بينَ الأوهامِ والأحلامِ التي تراودُني وبينَ ما اخترعُه من أوهامٍ وأحلامٍ مأخوذًا بنشوةِ الكلامِ حينَ ألفُّ شباكَه حولَ من يصغونَ إليَّ فلا تبقى منهم إلّا عيونٌ شاخصةٌ وآذانٌ مطرقةٌ وعقولٌ مستلَبةٌ، ألعقُ لذّةَ القولِ كما يلعقُ بدويٌّ بقايا الطّعامِ من على أصابعِه.

قالَ لي حفيدي ذاتَ يومٍ وهو يلمسُ أثرَ جرحٍ في كتفي:

- يا جدْ، هذا الجرحُ لّما شاركتْ في غزوةْ بدرْ أو غزوةْ أحدْ؟

ضحكَ أخوه وقالَ معلّقًا:

- ما هو مهمْ غزوةْ بدرْ أو غزوةْ أُحُدْ يا جدْ ..المهمْ كنتْ تقاتِلْ معْ المهاجرينْ والأنصارْ، أو مع كفّارْ قريشْ؟

فكّرتُ قليلاً، قلتُ وأنا أتصنّعُ الجدَّ:

- لا غزوةْ أُحُدْ ولا غزوةْ بدرْ، هذا الجرحْ ضربةْ مسحاةْ يومْ ما كنّا نحفرْ الخندقْ، اعتذرْ اللي ضربني، وقالْ إنّها بالغلطْ، بسْ عرفتْ وتأكّدتْ بعدْ كذا إنّه كانْ واحدْ من المنافقين.

- يا سلامْ عليكْ يا جدْ .. المنافقينْ اللي ما كانْ أحدْ يعرفْهم، إنتَ عرفتْ إنّه اللي ضربْك بالمسحاةْ كانْ واحدْ منهم وتأكدتْ كمانْ؟

- طيّبْ يا فالحْ ما دمتْ تعرفْ إنْ المنافقينْ ما كانْ أحدْ يعرفْهمْ ليهْ ما عرفتْ إنّه أيامْ الرّسولْ كانتْ قبيلتْنا في اليمنْ، وما هاجرتْ للحجازْ إلّا في القرنْ الثّالثْ؟

- ووه يا جدْ، عسى بسْ ما كنتْ منْ صحابةْ الأسودْ العنسي؟

- عساكْ بالأسودْ اللي يعضَّكْ.

- هههههه الأسودْ .. ولدْ جارَنا مبيريكْ؟

- الأسودْ الحنشْ يا أهبلْ.

قالَ له أخوه، ورجتْني ابنتي أنْ لا أدعو على ولدِها، ضحكوا جميعًا وضحكتُ معهم، عادَ يضعُ يدَه على أثرِ الجرحِ القديمِ..

شعرتُ بدوارٍ وضجيجِ رجالٍ، كنّا قدْ وردْنا البئرَ قبلَهم وأبوا إلّا أنْ يستقوا قبلَنا، نزعتُ الدَّلوَ من يدِه، حاولَ أنْ يدفعَني في البئرِ، انزلقتْ قدمي وسقطتُ على الأرضِ، قبلَ أنْ أنهضَ رأيتُ خنجرَه يلمعُ وشعرتُ بنصلِه ينغرسُ في كتفي، صرختُ من الألمِ، رفعَ حفيدي يدَه عن أثرِ الجرحِ:

- تحسْ فيهْ بألمْ لمّا ألمسُه يا جدْ؟

- لا لا .. هذا جُرحْ قديمْ.

- طيِّبْ ما قلتْ لي هذا الجُرحْ منْ إيهْ؟

- ما أدري.

- جُرحْ كُبُرْ كذا وما تدري عنْ سببهْ؟

- الجروحْ يا وليدي كثيرةْ.

- ما فيهْ غيرهْ.

- بَلاكمْ ما تشوفونْ.

- لو فيهْ غيرهْ كانْ شفناهْ.

- المشكلةْ إنّكمْ ما تشوفونْ الّا اللي تشوفْ عيونكمْ .

وذكّرتني ابنتي أنّه أثرُ حادثٍ قديمٍ في طريقِ مكةَ يومَ أنْ كنّا عائدينَ بعدَ أداءِ العمرةِ.

لمْ تكنْ المشكلةُ مشكلتَهم كما ادّعيتُ، كانتْ مشكلتي التي بتُّ أعاني منها مذْ صرتُ أرى ما لا تراهُ عيونُهم، بلْ ما لا تراهُ عيناي كذلك، كلّما اشتدَّتْ العتمةُ منْ حولي أصبحتُ أكثرَ قدرةً على الرّؤيةِ، وكلّما أطبقتُ جفني ازدادتْ الأشياءُ وضوحًا، كأنّما بتُّ أرى بعيونٍ أخرى غيرَ هذه العيونِ التي اعتادَ الناسُ أنْ يروا بها، كأنّي بتُّ أرى بعيونِ آخرينَ أعرفُ بعضَهم ولا أعرفُهم جميعًا.

بتُّ، وقدْ استبدَّ بي الأمرُ، لا أعرفُ نفسي، لا يكادُ يميِّزُني شيءٌ عمّن أراهمْ، لا أكادُ أميِّزُني عمّن أراهمْ، بتُّ الناظرَ والمنظورَ، الرّائي والمَرئي، اختلطْ عليَّ ما قرأتُ بما

سمعتُ، ما عشتُه بما توهَّمتُ أنّي قد عشتُه، لمْ يعدْ الواقعُ واقعيًّا، واقعي كانَ خليطًا من الوهم والحقيقةِ، ربّما كانَ خليطًا من أوهام ليسَ بينَها حقيقةٌ واحدةٌ، أو خليطًا من حقائقَ لا يخالطُها وهمٌ واحدٌ.

أحسدُ أولئكَ الذينَ يملكونَ القدرةَ على تمييزِ الحقائقِ من الأوهامِ حينًا وأرثي لهمْ حينًا آخرَ، وأعتقدُ في الحالين أنّهم يفتعلونَ هذا التّمييزَ كي يبرهنوا على أنّهم عقلاءُ وقادرونَ على التّمييزِ.

تواطأوا على التّسليمِ ببعضِ واقعِهم كي يجدوا ما يتّفقونَ عليهِ إذا ما اختلفوا، أغلقوا البابَ على أحلامِهم وأوهامِهم وخيالاتِهم، أغلقوهْ على كلِّ ما هو ثريٌّ في الواقعِ، على كلِّ ما يجعلُ حياتَهم تستحقُّ أنْ يحيوها، ثمّ نسوا ما أغلقوا عليه البابَ، تركوه يتعفَّنُ وراءَ البابِ، وحينَ تفوحُ رائحتُه يتبرَّأون منه، ينعتونه وهمًا، خرفًا، أو جنونًا.

لمْ يبقَ لهم من الواقعِ الذي كانوا يحيونه غير هذا القسطِ الفقيرِ الذي يجمعُ بينَ جماعاتِهم إذا افترقتْ ويوحِّدُ بينَ آرائهمْ إذا اختلفتْ، اختاروا من واقعِهم ما يستهلكونَه في حياتِهم اليوميّةِ، وتوهَّموهُ هو كلَّ الواقعِ، لا يدركون أنَّ واقعَهم الذي يتعاملونَ من خلالِه مع الآخرين وهمٌ، ولا

يفقهونَ أنّ ما يعتقدونَه وهمًا إنّما هو الواقعُ الذي يحيونَه إذا ما خلوا لأنفسِهم، ثم يكابرونَ بعدَ ذلكَ؛ مَثَلُهم في ذلك مَثَلُ منْ خرجوا من منازِلِهم، تواعدوا أنْ يلتقوا في السّاحاتِ، ثم نسوا تلكَ المنازلِ، تركوا جدرانَها تتداعى وحدائقَها تذبلُ ونوافيرَها تجفُّ، ثم اتخذوا من تلك السّاحاتِ منازلَ لهم.

جسـدُ العمرِ يتمـدّدُ جنبي فوقَ السَّريرِ، أرى البدايـاتِ والنِّهايـاتِ، مثـلَ أحجارِ النَّـردِ تتناثـرُ السَّـنواتُ حـولي، أنـا حقائقـي المتوهَّمـةُ، وأوهامـي الحقيقيَّـةُ، أنـا أمـلي ويـأسي، حزني وفرحـي، شـكّي ويقيني، أجتمعُ كلّي ككُـرةٍ معلّقـةٍ في السَّـقفِ وأهبـطُ رويـدًا رويـدًا حتـى أجثـمُ عـلى صـدري.

جسـدُ الوقـتِ يتمـدّدُ جنبي، أنـا الماضي والحاضرُ في آنٍ، أنـا كلُّ الذيـن ماتـوا وكلُّ الذيـن سـوفَ يولـدون، معلَّقًـا، أراني، في سـقفِ الحجرةِ، روحًـا ملَّت الجسدَ الـذي سكنتْ إليـهِ طويـلًا، تنتظرُ الانعتاقَ منه، تغـدو روحًـا خالصـةً، تحلّقُ كـما تشـاءُ، تحطُّ حيثُـما تهـوى، تـزورُ من لا يزالـونَ يتذكَّرونـها، وحيـنَ ينسـونَها تغـدو روحًـا متشرِّدةً، ذئبًـا يعـوي في القفـارِ، أو كلبًـا ضـالًّا في الطرقـاتِ.

أصبـحَ جسـدي كلُّـه جرحًـا كبـيرًا ينـزُّ دمًـا ورجـالًا وحكايـاتٍ، تعثَّـرتُ بعتبـةِ البـابِ، غـابَ نَفَسي قليـلًا وعـادَ، هتفـتُ:

- ليتَهُ ما رِجِعْ.

- مينْ يا أبويا؟

سألتني ابنتي متوجِّسةً منْ أنْ أكونَ أدعو على أحدٍ:

- نَفَسي

روحٌ تتعثَّرُ في رداءٍ مهلهلٍ، روحٌ ضاقَ عنها الجسدُ وضاقتْ به، جسدٌ يتشبَّثُ بالرّوحِ، يعرفُ لو أنّها فارقتْه واروه التُّرابَ كما فعلوا ويفعلونَ في كلِّ مرَّةٍ ماتَ فيها، جسدٌ يحدِّقُ في السَّقفِ، العناكبُ للمتْ خيوطَها وغادرتْ والغارُ غدا خاويًا، الغارُ غدا قبرًا ينتظرُ، يقفُ على حافّتِه موتى أربعةٌ شعثٌ، يجرفونَ ما ينهالُ في لحدِه من التُّرابِ ويرشّونَه بالماءِ ويغرسونَ على حافّتِه غصنَ ريحانٍ، كلّما جفَّ أبدلوه بغصنٍ أخضرَ.

يحملُ على كتفيهِ ثمانينَ عامًا وعمْرًا أنضجتْه التَّجاربُ حتى غدا روحًا في هيئةِ جسدٍ وجسدًا في هيئةِ روحٍ، كفَّ بصرُه ولم تكفّ عزيمتُه، أراهُ يمسكُ بيدي وتقودُني كلماتُه، يُسْلِمُنا زقاقٌ إلى زقاقٍ، ومنْ حولِنا يتهامسُ أطفالُ القريةِ:

- أبو سعيدْ.

- ومينْ اللي معاهْ؟

- ولدُه الكبيرْ سعيدْ.

أُمسكُ بيدِه وتُمسكُ بي كلماتُه، تقودُني إلى حيثُ لا أعلمُ:

- إذا تعدّينا بيتْ أبـو أنيسْ لِفْ يمينْ، واستمرْ إلى آخِرْ الطِّريقْ.

- وصلْنا آخرْ الطِّريقْ.

- إيشْ قدّامكْ؟

- مقبرةْ.

- خذْني للرُّكنْ اليماني فيها، وقولْ لي أيشْ تشوفْ.

قبـورٌ خمسـةٌ حديثةُ الحفرِ مهيَّأةٌ لموتى قادمين، تنتظرُهـم يأتـونَ في الصَّبـاحِ فـإنْ لمْ يأتـوا انتظرتْ قدومَهـم في المساءِ.

- هـذي القبـورْ الخمسةْ أنـا طلبتْ حفرَهـا، واحدْ منهـا لي إذا مـتْ هنـا، والأربعـةْ الباقيـةْ صَدَقَـةْ لـلي ربّي كاتبْهـا لهـم.

مبتهجًـا كانَ، عـلى وجهـهِ قسـماتُ فـرحِ مـنْ يؤسِّـسُ بيتَـه الأخـيرَ، يؤسِّسُ لحياتِـه بعدَ الموتِ، يمدُّ يـدَه مـن قـبرِهِ لجيرانِـهِ مصافِحًـا ويهديهـم مفاتيـحَ بيوتِهـم الجديـدةِ.

لمْ يمـتْ هنـاكَ في تلـكَ القريـةِ النّائيـةِ، سـكنَ القبـورَ الأربعـةَ مـن كتبَهـا اللهُ لهـم، وبقـيَ القبرُ الـذي كانَ قـدْ هيَّأه لنفسِـه، يقـالُ أنَّ أهـلَ القريـةِ دفنـوا فيـه جـذعَ نخلـةٍ وسـمَّوه باسـمِه، أقـامَ بينهـم حيًّـا وأرادوا أنْ يحتفظـوا بذكْـرِه ميتًـا،

ويقالُ لا يزالُ قبرُه ينتظرُ قدومَه في الصَّباحِ، فإذا مرَّ الصَّباحُ ولمْ يأتِ انتظرَه في المساءِ.

أحدِّقُ في سقفِ الغرفةِ أرى قبرًا يسألُني عنْ أبي، موتى أربعةً، يخرجون من قبورِهم كلَّ مساءٍ، يجتمعونَ شُعثًا حولَ القبرِ يسوّونَ ترابَه، يرشُّونَه بالماءِ ويسألونني عنْ موعدِ قدومِ أبي لبيتِه الذي بناه لنفسِه قبلَ موتِه.

لم يَعُدْ لي ما أنتظرُه في مقبلِ الأيّامِ فباتتْ سلوتي في استعادةِ ما مضى منْها، فصولُ حياةٍ مرّتْ سريعًا وكأنّها لم تكنْ حياتي وكأنّني لمْ أكنْ أنا الذي قدْ عشتُها، قفزاتٌ متواليةٌ لا يكادُ فيها عبثُ الطُّفولةِ ينفكُّ عن مغامراتِ المراهقةِ، ولا يكادُ اندفاعُ الشَّبابِ يختلفُ عن تأنّي الكهولةِ، محمولًا على جوادِ العُمرِ، تتقاذفُني السُّنونُ، أتذكّرُني طفلًا يتمسَّكُ بيدِ أبيه حتّى يستقيمُ له المشيُ، وأجدُني شيخًا يأخذُ أحفادُه بيدِه كي يستطيعَ الوقوفَ، تسألُني:

- هل ندمتَ على شيءٍ فعلتَه؟

- بلْ ندمتُ على كلِّ فعلٍ لم أفعلْه.

لم يتَّسعُ العمرُ لفعلِ شيءٍ، لم يتسعْ العمرُ للعمرِ، أشعرُ بغصَّةٍ أنْ يمضي العمرُ سريعًا وكنّا قدْ انتظرناه طويلًا لكيْ يبدأَ.

- ليسَ عدلًا يا عيسى أنْ ننتظرَ نُطَفًا آلافَ السِّنين ثمَّ لا يكونُ نصيبُنا في الحياةِ إلّا بضعَ سنواتٍ نغادرُ بعدَها للموتِ.

- منْ قالَ إنَّها بضعُ سنواتٍ، اخلعْ عنكَ يا صاحبي قوسَي الولادةِ والموتِ، أنتَ كلُّ الذين ماتوا وكلُّ الذين سيولدون، عمرُك هو ما مضى من أعمارِهم جميعًا، عمرُك آلافُ السِّنين يا صاحبي، اخلعْ أقواسَك وعِشْ عمرَ الإنسانِ.

- يا عيسى، أنتَ تتحدّثُ كشاعرٍ، والحياةُ ليستْ قصيدةً تنبني على التخيّلاتِ والأوهامِ، الحياةُ واقعٌ صلبٌ صلدٌ نعيشُه.

- إذا ارتضيتَ أنْ تكونَ حياتُك هي هذا الواقعَ الصَّلبَ الصَّلدَ، كما تصِفُه، فذقْ عندَها مرارةَ الأسئلةِ التي لنْ تجدَ لها جوابًا.

ارتشفَ عيسى قليلًا منْ فنجانِ قهوتِه، وأكملَ:

- نحن، يا صاحبي، لا نعيشُ هذا الواقعَ الصَّلبَ الذي حولَنا، نحن نعيشُ بخيالاتِنا وأوهامِنا وأحلامِنا، بآمالِنا وتطلعاتِنا، نعيشُ بما نبنيهِ وبما ينبني فينا. هذا هو الواقعُ الحقيقيُّ، الواقعُ الذي لا يمكنُ لكَ أنْ تصِفَه

بالصَّلبِ والصَّلدِ، الواقعُ السّائلُ من بدءِ البشريّةِ حتى خاتمتِها.

ارتشفَ عيسى ما تبقّى منْ فنجانِ قهوتِه، وقالَ كمنْ قبضَ على الحقيقةِ بكلتا يديهِ:

– يا صديقي، اختصرْ عمرَكَ في رشفةِ فنجانِ القهوةِ وعندَها ستجدُ أنّكَ قد جمعتَ فيها الأبدَ.

استغرقَ عيسى مخلوف في حديثٍ يشبهُ الشِّعرَ وليسَ شعرًا ويشبهُ الفلسفةَ وليسَ بفلسفةٍ، كأنّما هو مرثيّةُ الإنسانِ لنفسِه حينَ يواجهُ قدرَه.

أستعيدُ كلماتِ عيسى، أخلعُ عنّي أقواسي، وأمضي أتقلّبُ في الأزمنةِ، موتٌ بين حياتين، أو حياةٌ بين موتين، والقبورُ تنتصبُ فواصلَ بين كلماتِ الحياةِ المقطّعةِ، أحدّقُ في سقفِ الغرفةِ، يقتادني مَلَكان، قدمايَ تخطّان على العشبِ وورقُ التّوتِ يتساقطُ، والحورُ يتهامسْنَ:

– مسكينٌ.

– تلك عاقبةُ العصيانِ.

أُفلتُ من قبضةِ المَلَكينِ، أركضُ ويتبعاني، ألوذُ بشجرِ السّدرِ عاريًا، يمسكان بي:

- ألا تكفيكَ معصيتُك؟

- وهبَك اللهُ ألفَ شجرةٍ فأبيتَ إلّا التي نهاكَ اللهُ عنها.

- أغواك الشيطانُ، ترصَّدك حينَ عصا ربَّه، لم يسجدْ لكَ، طُرِد بسببِكَ من الجنَّةِ، فبيَّتَ الانتقامَ منكَ، أخرجَك منها كما أُخرِجَ.

- بل أغوتني حرِّيتي، خلقني اللهُ حرًّا، لستُ مجبولًا على الطّاعةِ مثلَكم.

- ذُقْ إذَن ثمنَ أنْ تكونَ حُرًّا.

قالَها أحدُهما وألقيا بي خارجَ البابِ، رحتُ أتساقطُ، كلَّما تشبَّت بسماءٍ وهنتْ يدايَ فهويتُ لسماءٍ تليها حتى تلقّفتني الأرضُ، نظرتُ فإذا السَّماءُ بعيدةٌ وإصواتُ أبوابِها تنغلقُ بابًا بابًا.

أتقلَّبُ في فراشي، أنا وريثُ الخطيئةِ الأولى، أنا وريثُ الحزنِ والحسرةِ على ثمرِ الجنةِ، كلّما أغمضتُ عينيَّ ورحتُ أحلمُ بها قهقهَ إبليسُ:

- أهلا بك في جنتي على الأرض.

كلّما لمستُ ثمرةً عدتُ عاريًا، ولا أجدُ في شجرِ الأرضِ ورقًا أسترُ بهِ عورتي.

أُحدِّقُ في سقفِ الغرفةِ، سمائي الخفيضةِ، فأرى قبري، غرابٌ يدخلُ من النّافذةِ ويحطُّ على حافَّةِ الفراشِ، ينتظرُ موتي، الغرابُ نفسُه الذي واراني المرَّةَ الأولى، أخي قابيلُ يقلّبُ في حيرةٍ يديهِ، تقطران دمًا، وأنا الأخُ القتيلُ، لم تَطهُرْ الأرضُ مُذْ شربتْ دمي، قابيلُ عادَ بيديهِ الملطَّختينِ بدمي إلى أبي، لم يفتقدْني، يجلسُ على صخرةٍ كان، يحدِّقُ في السَّماءِ البعيدةِ، مشغولًا كانَ بجنّتِه التي خرجَ منها، لمْ يرَ يديهِ الملطَّختينِ بدمي، ولم يسألْه عنّي.

أنا ابنُ أولِ قتيلٍ راحَ دمُه هدرًا، ضحيةَ أخٍ لم تتسعْ الأرضُ لنحيا عليها معًا، وأبٍ شغلته جنّتُه التي غادرَها عن بناءِ جنّةٍ عادلةٍ على الأرضِ، عرفتُ الآنَ، الآنَ عرفتُ، كانَ أجدادي الذين أوغلوا في سفكِ الدّمِ يثأرون لي، كانوا يحملونَ في صدورِهم غضبًا يفورُ، كانوا يحملونَ في أوردتِهم دمًا يصرخُ طلبًا للثّأرِ، أنا ابنُ هابيلَ القتيلِ، وكلُّ أولئكَ الذين وارى أجدادي جثثَهم في الكهوفِ، أو تركوهم طعامًا للذئابِ والغربانِ، كانوا أبناءُ هابيل أخي وقاتلي.

أحدِّق في سقفِ الغرفةِ، تقطرُ دمًا أراها، ربّما كانَ أجدادي الذين استمرأوا سفكَ الدّمِ أبناءَ قابيلَ، نجا بفعلتِه الأولى، ورثَ حقلَ أخيهِ، وورثَ عنه أبناؤه نشوةَ لعقِ حدِّ خناجرِهم كلّما انتصروا بتلك الخناجرِ فكانتْ

خيرَ ناصرٍ لهم، يتباهونَ بعددِ قتلاهم وعددِ أبنائهم الذين يوصُونهم بأنْ لا يتركوا الأرضَ عطشى عاريةً من بحيراتِ الدَّمِ.

– الدَّمُ يطردُ النَّدمْ.

ولم يكنْ الدَّمُ الذي يتلذّذون بذكرِه كلّما انعقدتْ مجالسُهم دمَ أضحياتِهم التي يعلنونَ بها بهجتَهم بالعيدِ والضّيفِ، وإنما دمُ ضحاياهم في أرضٍ إمَّا أنْ تعيشَ عليها قاتلًا أو أنْ تموتَ فيها قتيلًا، ولا خيارَ لكَ غيرَ ذلك، في دمِك صرخةُ هابيلَ والصّخرةُ تهوي على رأسِه، ودمُ قابيلَ يجري في عروقِه منتشيًا بقتلِ أخيه.

أنا قابيلُ قاتلُ أخيه، يداي ملطّختانِ بالدَّمِ، منشيًا ألعقُ أصابعي، أحملُ جثّةَ أخي، أوزِّعُ قطراتِ دمِه على جهاتِ الأرضِ الأربعِ، كلّما سقطتْ قطرة دم نبتت شجرةُ صبّارٍ، والأرضُ من حولي نشوى، مذْ دحاها الله لم يسقِها أحدٌ قبلي مطرًا قانيًا، أدورُ حولَ نفسي، أتهاوى على الأرضِ، والأرضُ من حولي تدورُ.

ويلٌ لكَ يا عيسى، ويلٌ لكَ، أنوءُ بحياتي وحدِها فكيفَ ترزأُني بكلِّ هذه الحياةِ، كنتُ أحملُ عمري على كتفي، صرتُ أحملُ أعمارَ الخليقةِ كلِّها، أركضُ مقوَّسَ

الظَّهرِ، تحملُني تلالٌ إلى تلالٍ، أنحطُّ من ذرى جبالٍ فتتلقفُني بطونُ الأوديةِ، أطاردُ ظلّي وقطعانًا من الأيائلِ، أبرى من أغصانِ الشَّجرِ سهامًا، أُعِدُّ واحدا للأيائلِ وواحدًا لذاكَ الذي يركضُ خلفَها لو أمسكَ بها قبلي، والأرضُ من حولي مستنقعٌ من الدّمِ الحرامِ.

أنا القاتلُ والقتيلُ، الشّاهدُ والشهيدُ، أنا وريثُ الدَّمِ والأرضِ الخرابِ التي طهّرَها طوفانُ نوح، أنا وريثُ الأرضِ التي قضتْ عمرَها بانتظارِ طوفانٍ جديدٍ يعيدُ لها طُهرَها ثمَّ ماتتْ على جنابة.

يرشحُ السَّقفُ مطرًا قانيَ اللونِ، الماءُ يحيطُ بي، ألواحٌ تعومُ على وجهِ الماءِ، يرفعني الماءُ إلى السّقفِ، أسمعُ إسرافيلَ ينفخُ في الصُّورِ، والموتى يخرجونَ من قبورِهم ويحيطونَ بي:

- قُمْ، هذا أوانُ النُّشورِ.

يمدّون أيديَهم لي، أتشبَّثُ بها فتتمزّقُ في يدي، حولي تتناثرُ أصابعُهم، أكفُّهم، سواعدُهم، جماجمُهم ترتطمُ بسقفِ الغرفةِ ثم تهوي على الأرضِ، صرخاتُهم، أصرخُ، يطوفونَ بي، يصرخونَ، أرى أبي يركضُ حاملًا في يدِه حنجرتَه التي أُزيلتْ قبلَ وفاتِه تقطرُ دمًا، أمي تحملُ

كليتيها اللتينِ توقفتا عن العملِ قبلَ وفاتِها، جدَّتي تقبضُ كفَّيها وحينَ تبسطُهما أرى فيهما حدقتيْ عينيها العمياوينِ يتصبَّبُ منهما ماءٌ لزجٌ، أختي صالحةَ وعلى جبينِها لا يزالُ ينزفُ الجرحُ الغائرُ الذي أودى بحياتِها، ابنتي تمسكُ بيدِ حفيدتي، تطيرانِ كعصفورتينِ وتحطّان على كتفي:

- هذا بابا يا جودْ، تعرفينُه؟

- أعرفه جدّو، كيفْ ما أعرفُه، أفتكرُه، لما مُتْ أخذني للمستشفى، ولما سألُه الموظّف: إنتَ عاوزْ إيهْ؟ وإيهْ دي اللي في إيدَكْ؟ حطّني وأنا ملفوفةْ بمنشفةْ على الطاولةْ قدّامْ الموظَّفْ وقالْ لهْ: هذي حفيدتي ميّتةْ، عقبالْ عندَكْ، أبغى أطلّع لها شهادةْ دفنْ، وزِعِلْ منّه الموظفْ.

- بابا والله طيِّب، بسْ ما يبغى لأحدْ يزعّله، لَّما يزعلْ يصيرْ مرة شرِّيرْ وكلامُهْ زيْ السّمْ.

تضحكانِ وتطيرانِ من كتفٍ إلى كتفٍ، الموتى من حولي يتكاثرونَ، يتدافعونَ، تطيرُ العصفورتانِ، أشعرُ بدوارٍ شديدٍ وبرقٍ خاطفٍ، جلبةُ أصواتٍ تطرقُ سمعي، أدركُ أنّني كنتُ أعاني من حالةِ هذيانٍ:

- إصحَ.

أحاولُ أنْ أفتحَ عينيّ ولا أستطيعُ.

- إصحَ يا جدْ، الفطورْ.

يكشفُ عن وجهي اللحافَ، أفتحُ عيني، أحاولُ الجلوسَ، يساعدُني حفيدي:

- يا جدْ، إنتَ كنتْ تحلمْ؟

- لا.

- كنتْ تقولْ كلامْ مو مفهومْ.

- لا، ما كنتْ أحلمْ ولا كنتْ أقولْ كلامْ مفهومْ ولا غيرْ مفهومْ.

أستعيدُ حالةَ الهذيانِ التي مرَّتْ بي، أستغفرُ اللهَ العظيمَ من كلِّ ذنبٍ عظيمٍ، أتذكَّرُهم يدعونَ لي بحُسنِ الخاتمةِ، أرفعُ يدي إلى السَّماءِ:

- آمينْ ياربْ.

زارني في هيئتي، كانتْ زياراتُه لي قدْ انقطعتْ بعدَ سنواتٍ من وفاتِه، حينَ حدّقتُ في المرآةِ رأيتُه، تراجعتُ قليلًا عن المرآةِ، فركتُ عينيَّ وعدتُ أحدِّقُ في المرآةِ ثانيةً، وجهُه كانَ متألِّقًا فيها وليسَ وجهي، وجهُه الطفلُ الذي لا يمكنُ أنْ أخطئَه رغمَ عشراتِ السَّنواتِ التي مرَّتْ على وفاتِه، هتفتُ بهِ وقد لاحتْ على شفتيهِ ابتسامةٌ:

- عابد؟

لم يجبْني، لوَّحَ بيدِه مودِّعًا، كما كانَ يفعلُ حينَ تُفرِّقُنا الطَّريقُ ونحن عائدانِ من المدرسةِ، رأيتُه يغادرُ وفي يدِه حقيبتُه التي كانَ ينوءُ بحملِها وقد أثقلَها ما أودعَه فيها من كتبٍ كانَ يحرصُ على حملِها معَه كلَّ صباحٍ فإذا ما وجدَ فراغًا بين حصَّتينِ راحَ يقرأُ فيها.

رأيتُه في المرآةِ، ذاكَ كانَ صديقي عابد عيد، زميلي في المرحلةِ الإبتدائيةِ، كانَ قد اهتدى قبلَ وفاتِه للسرِّ المخبوءِ في الحروفِ، التقى بمنْ قالَ إنّهم خُدّامُها منْ قبائلِ الجنِّ، ذهبتُ إلى بيتِه أسألُ عنه بعدَ أنْ تغيَّبَ عنْ المدرسةِ عدّةَ أيامٍ، قالتْ لي أمُّه إنَّه مريضٌ، وأضافتْ وهي تنظرُ بغضبٍ:

- جنّنتُه الكتبْ اللي تقرونَها.

وسألَني أبوه:

- إنتَ اللي جبتْ لهْ كتابْ شمسْ المعارفْ؟

لمْ أكنْ أنا منْ أحضرَ له ذلكَ الكتابَ، ولكنّي كنتُ أعرفُ أنّه قد تمكّنَ من العثورِ عليهِ بعدَ أنْ كانَ يبحثُ عنه منذُ زمنٍ طويلٍ، لم يخبرْني منْ أينَ حصلَ على ذلكَ الكتابِ، كما لمْ يكنْ يخبرُني منْ أينَ كانَ يحصلُ على تلكَ الكتبِ التي كانَ يخبّئُها في حقيبةِ المدرسةِ حينَ كنّا في المرحلةِ الإبتدائيّةِ، وكانَ إذا ما انصرفَ التّلاميذُ للّعبِ اتّخذَ لنفسِهِ مكانًا قصيًّا وراحَ يقرأُ واحدًا منها، ولمّا لم أكنْ أحسنُ اللعبَ مع بقيّةِ التّلاميذِ ولم تكنْ صحّتي المعتلّةُ تساعدني على ذلكَ فقد كنتُ أفضّلُ الجلوسَ إلى جوارِهِ:

- شوفْ، هذا الكتابْ كتبُه واحدْ اسمُه طهَ حسين، يقولون كانْ أعمى.

- أعمى ويقدرْ يكتبْ؟ كيفْ ؟

- ما أعرفْ، انا قريتْ إنُّه أعمى.

- جدّتي عميا، وما تقدرْ تقرا ولا تكتبْ.

- إنتَ أهبلْ؟ أقولْ لكْ طهَ حسين تقولْ جدّتي..

ثمّ يشيرُ إلى صورةِ طهَ حسين على غلافِ الكتابِ:

– شـوفْ، هـذي صورتُـهْ وهـذي النظّـارةْ السُّـودا الـلي لابسْـها يلبسـونَها العميـانْ.

يخرجُ من حقيبتِه كتابًا آخرَ:

– شـوفْ، هـذا اسـمُهْ عبّـاسْ العقّـادْ، مـا يلبـسْ نظّـارةْ مثلَهـا لأنَّـهْ مـا هـو أعمـى مثلُـهْ.

– مـا هـو صحيـحْ.. عـمْ محمّـدْ باعبادْ يلبسْ نظّارةْ مثلَهـا ومـا هـو أعمـى .. يلبسْـها مـن شـانْ الشَّـمسْ بـسْ، وأنـا لَمَّـا وِجعـتْ عيـوني جـابْ لي أبويـا وحـدةْ زيَّهـا.

أخرجَ مرَّةً كتابًا من حقيبتِه وأعادَه سريعًا إليها:

– شفتْ هذا الكتابْ ؟

– ايشْ فيه؟

– كلُّه حكاياتْ وفيها كلامْ كلُّهْ قِلَّةْ أدبْ.

– منْ جدْ؟ كيفْ؟

– إيـوا أنـا قريـتْ فيـه شـويةْ، وحـدةْ بنـتْ تزوَّجْهـا الملكْ وكانْ يبغـى يقتلْهـا لأنُّـه كانْ كلْ ليلـةْ يتـزوَّجْ بنـتْ ويقتلْهـا في الصَّبـاحْ.

- حرامْ ..ليهْ يقتلْهم؟

- منْ شانْ إنّه كانْ يُشُكْ في الحريمْ.

- ليشْ يُشُكْ في الحريم؟

- ما أدري، المهمْ إنّه آخرْ شيْ تزوجْ وحدةْ كانتْ ذكيَّةْ وتعرفْ حكاياتْ كثيرةْ، قعدتْ تحكي له حكاياتْ كلَّها قلَّةْ أدبْ، وكلْ ليلةْ تقولْ له حكايةْ فيها قلَّةْ أدبْ والملكْ يسمعْ حكايتْها، عجبتْهْ الحكاياتْ وبطّلْ يقتلْها.

- ما قالْ لها عيبْ عليكْ ؟

- ما قالْ لها، كانْ مبسوطْ منها.

أخرجَ عابد من حقيبتِه كتابًا وقبلَ أنْ أقرأَ عنوانَه أعادَه إلى حقيبتِه، وقالَ كمَنْ يتصنَّعُ الحكمةَ:

- شوفْ يا سعيد، ترى الكبارْ يقولونْ لنا عنْ كلْ شيْ إنّهْ عيبْ، بسْ هم يقولونْ ويسوونْ كلْ شيْ، وكانْ كلْ شيْ يقولونْ لنا عنّهْ إنُّهْ عيبْ تلقاهْ موجودْ في الكتبْ.

- مِنْ جِدْ؟

- مِنْ جِدْ واللهْ، الكتبْ ما فيها شيْ اسمُهْ عيبْ، كلْ شيْ موجودْ فيها.

فتحَ عابدٌ لي بابًا سرِّيًا للكتبِ، بابًا يفضي لسردابٍ تنامُ فيه النِّساءُ عارياتٍ، تفوحُ من أجسادِهنَّ رائحةُ العطرِ واللذَّةُ والكلماتُ المحرّمةُ، يقلنَ ما لا يقالُ ويَسمعْن من الرِّجالِ كلامًا لو تفوَّهنا ببعضِه لاحترقتْ ألسنُتنا في أفواهِنا قبلَ أنْ تبلغَ حروفُه شفاهَنا.

تولَّعتُ بالكتبِ، أفتحُ بابَها السرّيَّ، أغلقُ خلفي البابَ وأهبطُ عاريًا درجَ السِّردابِ، أقفُ مذهولًا أحدِّقُ فيهنَّ عارياتٍ يتمدَّدْنَ على الأسرَّةِ، ويتجوَّلْنَ في الحدائقِ، تسرقُني مفاتنُهنَّ، يتغامزْنَ حينَ يرينني ويُشرْنَ لي أنْ اقتربَ.

ألجُ البابَ السِّرِّيَّ للكتبِ، أقرأُ، للكلماتِ رائحةٌ، لها ملمسٌ كذلكَ، وفي أحرفِها تختبئُ الضَّحكاتُ والهمساتُ التي أشتهي أنْ أسمعَها ولا أسمعُها، أتابعُ الكلماتِ بعينيّ، للكلماتِ عيونٌ، لها شفاهٌ، نهودٌ، افخاذٌ، وشعرٌ أسودُ ينسدلُ على الأكتافِ العاريةِ، أعيدُ قراءةَ الكلماتِ مجتمعةً، أقرأُها منفردةً، كلمةً كلمةً، أهمسُ بها كمَنْ يشتهي أنْ يسمعَه أحدٌ ويخافُ أنْ يسمعَه أحدٌ، أتذوَّقُ طعمَ الكلماتِ على شفاهي، أتذوَّقُ طعمَ شفاهي، المسُها بأناملي، تسري في جسدي قشعريرةٌ، أغمضُ عينيَّ وأتخيَّلهنَّ عارياتٍ في سراديبِ الحكاياتِ، يغمزْنَ لي فأذوبُ لذةً وخجلًا.

كانَ بابُ السِّردابِ ذاك بابًا لحديقةٍ سرِّيَّةٍ، حينَ أورابُه تنجلي جنَّةٌ، أنهرٌ من نبيذٍ، ومن عسلٍ، والمدى شفتانِ يرفُّ على حافتَيها انبهارُ، كلَّما لامستْ كفِّيَ البابَ أزَّتْ مفاصلُه، ولمحتُ خيولًا تجوبُ المدى، نساءً تعرَّينَ في الضَّوءِ، وأفقًا على ضفَّتيهِ يفيضُ النَّهارُ، كأنِّي أرى الموجَ في الهمسِ، ذا زبدٌ، وتلكَ ضفافٌ، وخلفَ المسافاتِ تصخبُ تلكَ البحارُ، تحطُّ على ساعديَّ النوارسُ، تقودُ خطايَ الفراشاتُ، يمدُّ يديهِ ليَ الوردُ، يطوِّقُني الجُلَّنارُ. أحدق في سرِّ أسرارِها، سدرةَ المُشتَهى، أحلِّقُ طيرًا جناحاهُ ماءٌ ونارٌ، وأهوي صريعًا على بابِها، وكلُّ الذي في يديَّ الغبارُ.

عابدٌ لم تعزلْه الكتبُ التي كانَ يقرأُها عن زملائهِ في المدرسةِ وأندادِه في الحيِّ فحسبُ، بل شغلتْه عنْ كتبِ المدرسةِ كذلكَ، كثيرًا ما كانَ يتعرَّضُ للعقابِ حينَ يكتشفُ المعلِّمُ أنَّه يخبِئُ بينَه وبينَ منضدتِه كتابًا يقرأُ فيهِ غيرَ آبِهٍ بما كانَ يشرحُه ذلك المعلِّمُ، ولمْ يكنْ يردعُهُ العقابُ عنْ ذلكَ غيرَ أنَّه كانَ شديدَ الحزنِ حينَ يصادرُ منه المعلِّمُ كتابًا، ويومَ أنْ قذفَ أحدُ المعلِّمينَ كتابًا كانَ يقرأُه من نافذةِ الفصلِ انتابتْه حالةٌ من الهيجانِ، لمْ يتردَّدْ في أنْ يصرخَ في وجهِ المعلِّم ثم يركضُ خارجَ الفصلِ كي يستردَّ كتابَه، وحينَ عادَ رفضَ المعلِّمُ دخولَه الفصلَ واستكتبْته

إدارةُ المدرسةِ تعهُّدًا بعدمِ الانشغالِ بقراءةِ الكتبِ خلالَ الدّرسِ.

– يا اخي ذولا ما يفهونْ، مو هُمْ يدرِّسونّا كتبْ المدرسةْ منْ شانْ نتعلَّمْ القرايةْ ونقرا بعدْ كذا كلْ الكتبْ؟

– يمكنْ.

– لا مو يمكنْ، هوَّ كذا، وما دامْ احنا نقدرْ نقرا الكتبْ تبقى كتبْ المدرسةْ ما هي مهمَّةْ وما لها لزومْ.

– مهمَّةْ، منْ شانْ هيَّ اللي تعلِّمنا كيفْ نفهمْ اللي نقراه.

– ومنْ قالْ لكْ أنا ما أقدرْ أفهمْ اللي أقراهْ؟ أنا أفهمْ كلْ شيْ، أقولْ لكْ على شيْ؟

– ايشْ؟

– همْ ما يبغونّا نقرا منْ شانْ ما نصيرْ نفهمْ أحسنْ منهم، ويمكنْ من شانْ ما نفهمْ إلّا اللي همْ فاهمينُهْ أو اللي يبغونّا هُمْ نفهمُه.

– طيِّب ليشْ يسوّون كذا؟

– خايفينْ نصيرْ أحسنْ منهمْ.

ارتميتُ على فراشي واهنًا، أستعيدُ حزني على عابدٍ، وأتساءلُ عمّا إذا كانَ الذي رأيتُه في المرآةِ وجهي أم وجهَه، غيرَ أنّه في كلا الحالينِ كانَ وجهًا طفلًا لا يمتُّ بصلةٍ لوجهي الذي أطفأتْ نورَ عينيه علاماتُ الشّيخوخةِ وكستْه التّجاعيدُ.

أحملُ رأسي بينَ يديَّ، كسلةِ أوراقٍ أحملُ رأسي بينَ يديَّ، وأحدِّقُ في عينيَّ طويلًا، بثرانٍ يعشّشُ فيها الصّمتُ، أتساءلُ من سرقَ النّورَ النّابضَ خلفَ الحدقةِ؟ من سكبَ الحبرَ الأسودَ في قنّينةِ ماءِ الدّمعِ؟ من تركَ السُّوسَ النّاخرَ يعبثُ في موقِ العينِ؟ فتقهقهُ أفعى رقدتْ في جمجمةٍ فوقَ الرَّفِ، أبصرُ في عينيها أشلاءً من عمرٍ ضائعٍ، أبصرُ في نابيها مِزَقًا من لحمٍ بشريٍّ.

أستعيدُ وجهي طفلًا في المرآةِ، أستعيدُ وجهَ عابدٍ، كأنّما هو أنا، أحتاجُ أنْ أراه كي أرى نفسي، أراه فلا أرى إلّا نفسي حينَ كانتْ الأرضُ تحتَ قدميّ بساطًا من الحكاياتِ والكلماتِ.

قبلَ أيامٍ كنتُ بصحبةِ أحفادي حينَ رأيتُ طفلًا، يبدو في السّادسةِ من العمرِ، يعدو في الشّارعِ حافيَ القدمينِ يتطايرُ خلفَه الغبارُ، هتفتُ مشيرًا إليهِ:

- هذا أنا.

- إنتَ؟

تساءلَ أحفادي، قلتُ لهمْ إنّي أقصدُ أنّه يشبهُني حينَ كنتُ طفلًا، ولمْ أكنْ أقصدُ ذلكَ، كنتُ قد رأيتُني، ولمْ يكنْ يساورُني شكٌّ في ذلك.

- إنتَ كنتْ تمشي حفيانْ يا جدْ؟

تساءلَ حفيدي ضاحكًا، لم أُجبْه، ولكنّني كنتُ أحبُّ المشيَ حافيًا، كانتْ أمّي كلَّما رأتني تردِّدُ:

- إذا شفتْ الحافي قولْ يا كافي.

ثمّ تطلبُ منّي أنْ ألبسَ حذاءً إذا خرجتُ، كنتُ أطيعُها وألبسُه، غيرَ أنّي كثيرًا ما كنتُ أخلعُه عندَ عتبةِ البابِ الخارجيِّ، وأعدو حافيًا مستشعرًا لذَّةَ ملامسةِ قدميَّ للتُّرابِ.

بينَ أحلامِ اليقظةِ وكوابيسِ النّومِ بتُّ أقضي ليلي وقسطًا من نهاري، أطفئُ النُّورَ وأغرقُ في العتمةِ، أسندُ رأسي إلى المخدَّةِ وأضعُ ساعدي على أذني، فلا أرى سوايَ ولا أسمعُ أحدًا غيري، أروحُ أتتبَع عمري الشّاردَ في ثنايا القرونِ، أستعيدُ أيّاميَ القديمةَ من ذاكرةِ النِّسيانِ، أشعرُ

بالفرحِ والزَّهوِ بما استعدتُ، لم أعدْ أنا وحدي، لم أعدْ المسجونَ بين قوسَي الولادةِ والموتِ، غدوتُ أنا الإنسانَ أتقلَّبُ في الأعمارِ وغدتْ ولادتي وموتي أزيائي وأرديتي، كلَّما بليَ منها شيءٌ خلعتُه عنّي وارتديتُ الجديدَ منه، أولدُ ومعي يولدُ موتي، وحين أموتُ أنسجُ ولادتي الجديدةَ من خيوطِ كفني.

تقتادُني أحلامُ اليقظةِ، تطوي القرونَ وتقفُ بي عليَّ، أراني مرّةً شاعرًا صعلوكًا تضيقُ به العشيرةُ فيجدْ في ذئاب البراري أهلا وسكنًا بديلًا، ومرّةً أخرى كاتبًا حين يجفُّ مدادُ قلمِه يستلُّ من دمِه حبرًا ويكتب بأظافرِه على الجدرانِ، أغمضُ عينيَّ على حلمِ أنْ كنتُ ذاتَ يومٍ فارسًا، يجندلُ الفرسانَ في الوغى، وتجندلُه ذكرياتُ عشقٍ قديمٍ كلَّما خلى إلى نفسِهِ أو خلتْ نفسُهُ إليه.

تُسْلمُني أحلامُ اليقظةِ لكوابيسِ النّومِ، حافيًا أعدو وراءَ النّوقِ وخلفي تعدو الذّئابُ والضِّباعُ وعلى ساقيَّ تلتفُّ الأفاعي، والقبيلةُ تستلُّ خناجرَها وحناجرَها، أفتِّشُ عن شجرةٍ استظلُّ بها من صهدِ الشّمسِ، وعن كهفٍ يحميني من بردِ الشِّتاءِ.

يدخل عيسى، أنيقًا كعادتِه، يجلسُ إلى جواري، أخرجُ من متاهتي، أمسكُ بتلابيبِه، أصرخُ به:

– ويلٌ لكَ يا عيسى، ما كانَ أغناني عنْ ذلكَ كلِّه، أغريتني بأعمارٍ سلفتْ لي فأضعتُ ما تبقّى لي من العمرِ.

– أخطأتَ الطّريقَ يا صاحبي، لا تبحثْ عن نفسِكَ فيهم فتضلّ، ابحثْ عنهم في نفسِك تهتدِ.

لم أكنْ في حالٍ تسمحُ لي أنْ أستوعبَ ما يقولُ، ويبدو أنَّ نظراتي الذاهلةَ وشتْ بعجزي عن الفهمِ، راحَ عيسى يتحدَّثُ كمنْ يشرحُ درسًا:

– عُدْ إلى كلِّ فعلٍ فعلتَه، كلِّ موقفٍ وقفتَه، كلِّ كلمةٍ قلتَها، عُدْ إلى ذلكَ كلِّهِ فستجدُهم يكمنونَ هناكَ، يلوحونَ لكَ وراءَ مواقفِك ويعلنونَ عن أنفسِهم في كلماتِك.

– هل أنا مجرَّد صدى لهم؟

– أنتَ تمظهراتُهم، إشاراتُهم التي تركوها ورحلوا.

– وأين أنا منْ كلِّ ذلك؟

– أنتَ كلُّ ذلك، أنتَ كلُّ ذلك، أنتَ كلُّ ذلك أنتَ كلُّ ، أنتَ

كانّ صدى صوتِ عيسى يتردَّدُ بينَ جدرانِ الغرفةِ، وكانتْ الغرفةُ تتحوَّل إلى برارٍ فسيحةٍ، كانَ ثمّة ومضُ برقٍ ومطرٌ يتساقطُ على وجهي..

أفقتُ على يدِ ابنتي تمسحُ العرقَ عن وجهي وتسالُني:

- ابويا، إنتَ طيّبْ؟

أفكِّرُ في عابدٍ كثيرًا، مذ رأيتُه في المرآةِ باتَ لا يفارقُ تفكيري، ولم أكنْ في حقيقةِ الأمرِ افكِّرُ فيه بقدرِ ما كنتُ أفكّرُ في طفولتِنا المشتركةِ، اتذكّرُه بحزنٍ يشبهُ حزني على نفسي، كانتْ الكتبُ التي كانَ يقرأُها قد استدرجتْه إلى عالمِها خطوةً خطوةً، أغرتْه كامرأةٍ حتى وقع في شباكها، ولجَ حماها فغلَّقت دونه الأبوابَ، خلتْ به، ولم يرَ بعدَها برهانَ عقلِه، وراحتْ تبني له عالمًا موازيًا للعالمِ الذي يعيشُه زملاؤه في المدرسةِ وأبناءُ الحيِّ من حولِه.

يومَ أنْ أخذتنا المدرسةُ في رحلةٍ إلى حديقةِ الحيواناتِ توزَّعَ تلاميذُ المدرسةِ في أرجاءِ الحديقةِ، لم يستوقفْهم شيءٌ كما استوقفَهم القسمُ المخصَّصُ للقردةِ، إلّا عايدا، قادتْه قدماه إلى حظيرةِ الغزلانِ، لم يسألْ أحدًا عن مكانِها، ذهبَ إليها دونَ أنْ يلتفتَ إلى سواها ممّا كانتْ تعجُّ به الحديقةُ ودونَ أنْ تصرفَه عنها ضحكاتُ زملائه وهمْ يتقافزونَ أمامَ السِّياجِ الذي يحيط بالقردةِ، ألقى عابدٌ بعمامتِه على الأرضِ، خلعَ نعليه، جثى على ركبتيه وراحَ يحدِّقُ في غزالٍ من تلكَ الغزلانِ، يتبعُها بنظرِه أينما ذهبتْ:

- حِلو شكلَها.

قلتُ له فوضعَ إصبعَه على شفتيهِ مشيرًا أنْ أصمتَ، وبيدِهِ أشارَ أنْ أجلسَ إلى جوارِه، جلستُ أوزّع نظري بين مجموعةٍ من الغزلانِ كانتْ تتحرَّكُ في الحظيرةِ:

- ركِّزْ على وحدةْ بسْ، زيْ ما أنا مسوّي.

ولمْ أعرفْ لماذا طلبَ منّي ذلكَ، خرجَ من صمتِه وتأمّلِهِ والتفتَ إليَّ:

- عارفْ أنا كنتْ أفكِّرْ في إيهْ؟

- تفكِّرْ في إيهْ؟

- فاكرْ قصَّةْ قيسْ المجنونْ اللي اعطيتَكْ إيّاها؟

- فاكرْها، قصّةْ اللي حبْ وحدة اسمَها ليلى وتجنَّن بسببْها، جابوا تمثيليَّةْ عنَّه في الرّادي.

- في يومْ من الأيامْ كانْ قيسْ جالسْ في الصَّحرا، شافْ غزالةْ وقالْ شعرْ فيها وإنّها تشبهْ ليلى حبيبتُهْ.

- طيِّب وبعدينْ؟

- يعني البناتْ والغزلانْ يتشابهونْ، ولمّا تشوفْ غزالةْ كأنّكْ شفتْ بنتْ.

- ما أدري، بسْ يمكنْ منْ شانْ قيسْ كانْ مجنونْ لَمّا شافْ الغزالةْ حسْ إنها تشبهْ ليلى حبيبتُهْ، وقالْ فيها شعرْ.

- أنا قاعدْ أتأمَّل الغزالةْ منْ شانْ أعرفْ وأحسْ أيشْ اللي حسْ به قيسْ وخلّاهْ يقولْ شعرْ.

- بسْ هوَّ كانْ يحبْ وحدةْ وكانْ يفكّر في اللي يحبَّها لَمّا كانْ يشوفْ الغزالةْ.

- إيوا

- طيِّبْ كيفْ تبغى تحسْ اللي حسْ بهْ ؟

-لَمّا تقرا قصَّةْ واحدْ يحِبْ تحسْ إنَّكْ إنتَ اللي تحِبْ.

ترددْتُ قليلًا ثم سألتُه:

- إنتَ تحبْ يا عابدْ؟

لم يجبْ على سؤالي، همستُ له:

- قولْ لي، إحنا أصحابْ، واللهْ ما أقولْ لأحدْ.

- شوفْ، أنا ما أحبْ ولا وحدةْ، بسْ أحسْ إنِّي أحبْ.

- كيف؟

- ما ادري.

عادَ عابدٌ يطلبُ منّي أنْ أتأمَّلَ الغزلانَ ثانيةً:

- اختارْ أحلى وحدةْ فيهم وركِّز عليها.

- كلُّهمْ زيْ بعضْ.

- لا، موْ كلُّهمْ زيْ بعضْ، هذي أحلى وحدةْ، ركِّز عليها.

عادَ يحدِّقُ مرَّةً أخرى في تلكَ الغزالةِ، وحدّقتُ معه، التفتَ إليَّ وقالَ منتشياً:

- عارفْ.. حسّيتْ إنَّها تشبهْ وحدةْ بنتْ من بناتْ جيرانَّا، وإنتَ؟

- حسّيتْ إنَّها تشبهْ سهيلةْ.

- منْ بناتْ جيرانْكمْ؟

- لا..سهيلةْ غنمةْ جدِّتي.

ضحكتُ، نظرَ إليَّ غاضبًا:

- معفِّنْ، أصلًا ما فيهْ في راسَكْ غيرْ غنمْ جدَّتكْ يا معفِّن.

في طريقِ العودةِ إلى المدرسةِ راحَ يحدِّثُني عن الغنمِ التي كانَ قيسٌ يرعاها، وكيفَ أنَّه تعرَّفَ على ليلى وهما

يرعيانِ الغنمْ، يتركانِها ترعى العشبَ في البرِّيَّةِ ويجلسانِ يتحدثانِ تحتَ ظلالِ الأشجارِ وعندَ نبعِ الماءِ.

- هذي الغنمْ بجدْ، مو تقولْ لي غنمْ جدَّتكْ اللي ترعى في الشَّوارعْ وتاكلْ من القمامةْ، ترى حتَّى الغنمْ أيامْ قيسْ وليلى غيرْ غنمْنا.

- كيفْ يعني، تغيّر شكلَها؟

- ما أدري، بسْ يمكنْ كانتْ الغنمْ زيْ الغزلانْ، والغزلانْ زيْ البناتْ.

يضحكُ، أشاركُه الضَّحكَ:

- شوفْ، يمكنْ الواحدْ يصيرْ يحبْ لو ركَّزْ في التفكيرْ على وحدةْ بنتْ.

أضحكُ، ويشاركُني الضَّحكَ، يتندَّر علينا بقيةُ التلاميذِ:

- شوفوا بالله، مو جالسينْ لوحدُهمْ في آخرْ الأوتوبيسْ يضحكونْ زيْ القرودْ؟

- القرودْ همْ اللي ما عجبتْهم في حديقةْ الحيواناتْ غيرْ القرودْ.

- قصدَكْ إنُّهْ إحنا قرودْ يا قردْ إنتَ وصاحبْك؟

يهمسُ عابدٌ في أذني:

– سيبكْ منهمْ، ذولا ما يعرفونْ شيْ، الشّاطرْ فيهم هو اللي يعرفْ كتبْ المدرسةْ بسْ.

– وحتّى كتبْ المدرسةْ تراهمْ ما همْ شطّارْ فيها، ما يعرفونَها زيّ ما نعرفْها.

– عارفْ، أحسْ كتبْ المدرسةْ غبيَّة .

– خرَّبتْ تفكيركْ الكتبْ اللي تقراها.

– يا اخي مو خرَّبتْ تفكيري، أنا صرتْ أحبْ أقرا غيرْ اللي يدرِّسونُه لنا في المدرسةْ، أقرا الكتبْ اللي تخلِّيني أفهمْ أكثرْ من اللي يفهمونَهْ، الكتبْ اللي تحسِّسني إنُّه اللي يفهمونُه غلطْ، وإنهمْ ما همْ فاهمينْ حاجةْ..

أورثني عابدٌ ما قالَه عن الكتبِ ورحلَ، بتُّ أرى كلَّ الكتبِ خواءً ما لم أشعرْ بها تحدّيًا لكلِّ ما قرأتُه قبلَها، هدمًا لما سبقها، زلزالًا معرفيًا، ينقضُ فيه كلُّ كتابٍ ما أبرمَه الكتابُ الذي قبلَه.

قلتُ للطفي عبد البديع ونحنُ نغادرُ قاعةَ الدَّرسِ:

– دكتورْ، أنا في مشكلةْ.

– إزّاي؟

- إنتَ تهدمْ كلْ اللي تعلمتَهْ.

- كوِّيسْ.

- كوّيسْ؟ طيَّبْ وبعدْ ما أخسرْ كلْ اللي تعبتْ سنينْ حتّى تعلمتُهْ؟

ولم يجبْني، تركني يومَها على رُكامٍ من المعرفةِ، وعشتُ بعدَها سنواتٍ معه كي أتعلّمَ كيفَ أعيدُ بناءَ تلكَ الأنقاضِ، أحملُ حجارتَها حجرًا حجرًا، وحينَ يدركُني الإعياءُ أسقطُ أرضًا وأفيقُ ويدٌ تمسحُ عن جبيني العرقَ والدَّمَ والغبارَ، ولم يستوقفْني في حركةِ الحداثةِ حين اتصلتُ بها غير ما وجدتُه فيها من نقضٍ لكلِّ مبرومٌ من سُبلِ القولِ وآليّاتِ إنتاجِ المعاني، ما وجدتُه فيها من غضبٍ على كلِّ ما هو مؤسسٌ ومستقرٌ من طرائقِ التَّفكيرِ، ورغبةٍ عارمةٍ في قولِ ما لا يقالُ، وكتابةِ ما لمْ يُكتَبُ من قبلُ.

اختلطتْ أحـلامُ اليقظـةِ بكوابيسِ النَّـومِ، لم أعـدْ قـادرًا عـلى التَّمييـزِ بينَهـا، لم أعـدْ قـادرًا عـلى التحكُّـمِ في أحـلامِ اليقظـةِ كذلـكَ، والكوابيسُ التي كانتْ تنتابني كلَّما أُغمضَ عينيَّ النَّـومُ باتـتْ تداهمني كلَّما آويتُ إلى الفراشِ وقبلَ أنْ يحتويَنـي النّـومُ.

أستعرضُ ما سلفَ لي من عمرٍ وما مرَّ بي منْ مواقفَ، أبحـثُ عـن أسـلافي في ثنايا هـذهِ وتلـكَ، عـن كلماتِهـم التـي تتـوارى خلـفَ كلـماتي، ومواقفِهـم التـي كانـتْ تشـدُّ إزرَ مواقفـي، أبحـثُ في صـوَري عـن صورِهـم، في ملامحي عـن ملامحِهـم.

تنـادوا ذات ريبـةٍ واسـتدارَ مجلسُ حرّاسِ مرمى العربيـةِ حـولي، يحيكـونَ كلماتِهـم وشـباكَهم، يعدُّون كمينًا لي، فرغـوا ممّـا وطّـأوا بـه مـن حديـثٍ عـن الحداثـةِ ثـمّ مضـوا إلى آخـرِ غـرزةٍ في الشّـبكةِ، آخـرِ سـهمٍ في جعابِهـم:

- ما رأيُك في أدونيس؟

- له ما لَه، وعليه ما عليه.

- نريدُ رأيًا أكثرَ وضوحًا

- أدونيس شاعرٌ ومفكرٌ، لا تمكنُ مصادرتُه بحكمٍ واحدٍ.

- باختصار، إنتَ تتَّفقُ معه؟

- في كثيرٍ ممّا ذهبَ إليه.

- وتعتبرُه شاعرًا ومفكرًا؟

- اختلافُنا معه لا يمكنُ أنْ يجعلَنا ننكرُ أنّه شاعرٌ ومفكرٌ.

يتغامزونَ كمنْ وجدَ ضالَّته، كصيَّادينَ أيقنوا أنَّهم أوقعوا فريستَهم في حبائلِهم، تغادرهم، تبسطُ أوراقَكَ، بياضَك حين يحدِقُ بكَ سوادُهم، تبسطُ وطنَك كلَّما ضاقتْ بك أوطانُهم، تتساءلُ عمَّا إذا كانتْ هذه هي حريّةَ الفكرِ الجامعيِّ التي تنزَّلَتْ منكَ منزلةَ البشارةِ يومَ أنْ أغراكَ بها من قرأتُ لهمْ وأنتَ تهيئُ نفسَك للجامعةِ كمنْ يتهيأُ للقاءِ من يحبُّ، تبسطَ أوراقَك بيضاءَ من غيرِ سوئهم، أوراقُك خندقُك حينَ تحيطَ بك ذئابُهم، وقلمُك سيفُك وخنجرُك ورمحُك في معركةٍ لا تملكُ سواهُ فيها سيفًا أو خنجرًا أو رمحًا.

أبسطُ أوراقي بعدَ ساعةٍ في الضّحى بينَ العمائمِ واللحى، كأنّها يدٌ تمسكُ بيدي وأكتبُ: أنتَ وضجيجُ

الكلماتِ وهُمْ، أقرأُ ما كتبتُ، وخلفَ السُّطورِ تلوحُ لي تلكَ الساعةُ في الضّحى، منْ خلفِها رأيتُه يحتمي بنظّارتيه عمَّن حمدَ اللهَ أنْ خلقَه أعمى فلا يرى تلكَ الوجوهَ التي حاصرتْه في تلكَ الساعةِ من الضّحى، أسألُ اللهَ الثباتَ، وعلى شفتيه أعرفُ ابتسامةَ الرضا.

أنضجوا طبختَهم كما يشتهونَ، وانتهى بك الأمر إلى سيِّدِ الجامعة، وحده كان محتميًا بكرسيِّه العالي، ولم تكن أنتَ وحدَك، جئتَه مدجَّجًا بكلِّ ما قرأتْ، مدجَّجًا بآبائكَ، بكتبِكَ، بالحروفِ وخدَّامِها من قبائلِ الإنسِ والجنِّ، وحدَه كانَ وكرسيَّه، لا يعرفُ كم كنتَ كثيرًا أنتَ، يبسطُ ورقةً بينَ يديكَ ويبدأُ في المساومةِ:

- أكتبْ تعهُّدًا أنْ تُغادرَ الجامعةَ إذا أقنعتُ المجلسَ بمنحِكَ الدرجةَ.

يهمسُ في أذني الحلّاجُ: وأسهلُ شيءٍ عندَنا ما تمنَّتِ.

كنتُ قد نفضتْ يدي من الجامعةِ مذْ أمسكَ التشدّدُ بتلابيبِها واقتادَها بعيدًا عن سُبلِ المعرفة، اغتصبَها في غفلةٍ من من الوقتِ، انغلقتْ على نفسِها، وراحتْ تتطهَّرُ من كلِّ من يخالفُ نهجَها المتشدّدَ من أساتذةٍ ومناهجَ.

- سلكَ الطّالبُ منهجًا في البحثِ غيرَ المنهجِ الذي ترتضيهِ الجامعةُ.

قال سيّدُ الجامعةِ ذلك في تقرير بعثّ بهِ إلى الكلّيّةِ، برّرَ به إلغاءَ الدرجةِ العلميّةِ ضاربًا عرضَ الحائطِ بتوصيةِ اللجنةِ العلميةِ بمنحِها وإقرارِ الكليّةِ لتلكَ التَّوصيةِ، ومصادقتِه على ذلك الإقرارِ، ذكّرتُ سيِّدَ الجامعةِ وأعرفُ أنّه لم يكنْ ناسيًا:

- هذا المنهجُ الذي تنكرونَه عليّ هو نفسُ المنهجِ الذي استخدمتُه في رسالةِ الماجستير ومنحتموني بموجبِه الدّرجةَ بامتيازٍ، كما أنّه نفسُ المنهجِ الذي أقرّته الكليّةِ في خطّةِ البحثِ حينَ سجّلتُ هذه الرِّسالةَ وصادقتُم على ما أقرّتْه الكليّةُ.

أشاحَ بوجههِ عنّي وعمّا ذكّرتُه بهِ، قالَ كمنْ يتبرّأُ منْ إثمٍ ارتكبَه:

- الخطأُ لا يبرِّرُ الخطأ.

وحدَه سيّدُ الجامعةِ كانَ، وكانتْ كلماتُ أبي تحفُّ بي: كُنْ رجلًا واصمدْ، واحذرْ إذا أحاطوا بكَ أن تضعفَ أو تتراجعَ، قالَها لي حينَ سمعَ بما يقالُ عنّي وعرفَ ما يحاكُ لي، أيقظَ أبي ذلك البدويَّ في داخلي فلم يعدْ يهمُّني بعدَها ما يمنحونَ وما يمنعونَ.

- جنّةٌ منْ حرْملٍ جنتُك هذهِ التي تساومُني على الخروجِ منها.

قلتُ ذلكَ في نفسي، أتذكَّرُ ذلك الآنَ وأتمنّى لو أنّني جهرتُ لسيِّدِ الجامعةِ بما حدَّثتُ به نفسي.

- الرِّجالُ ثلاثةْ، واحدْ كلمتُهْ في فمُهْ، وواحدْ كلمتُهْ في كمُّهْ، وواحدْ كلمتُهْ عند أمُّهْ.

هكذا كانَ أبي يقولُ، ويحذِّرني:

- الرجّالْ هوَّ اللي كلمتُهْ حاضرةْ، يقولَها لو على رقبتُهْ، واللي كلمتُه عند أمُّه هوَّ اللي ما يعرفْ يتكلَّم وإذا فاتْ الفوتْ يقولْ يا ليتني قلتْ كذا.

كنتُ على يقينٍ منْ أنَّ سيِّدَ الجامعةِ لم يكنْ صادقًا فيما وعدَ بهِ، كنتُ أعرفُ عجزَه عن مواجهةِ زُمَرِ المتشددين الذين يحيطونَ به من كلِّ جانبٍ، ومعَ ذلكَ كتبتُ ما طلبَ، كمنْ يكتبُ صكَّ انعتاقِه من العبوديّةِ، كمنْ يفي بعهدٍ قطعَه لأبيهِ، ولمْ أشعرْ قط بأسى على ما تركتُ، أخرجتُهم من قلبي وذاكرتي، أخرجتُهم من مكّةَ كذلكَ، صرتُ كلّما زرتُها رأيتُها أكثرَ طهرًا ونقاءً.

لم أرَهُ حين غادرتُ، كنتُ منشغلًا بزهوي وحريّتي وآبائي القدامى، لم أرَهُ يومَ غادرتُ غيرَ أني أراهُ الآن جيّدًا، كانَ يقفُ في آخرِ الممرِّ، بنظّارتيهِ اللتين أبصرتُ بهما طريقي، أراهُ يقفُ باسمًا، يرمقُني ثم يطوِّحُ بعمامتِه في البحرِ.

تلاحقُني «الأيدي القذرةُ»، ترتفعُ ستارةُ المسرحِ الباريسيِّ عن هوجو يصرخُ وقد أُحيطَ به:

- لستُ قابلًا للاستردادِ ولا صالحًا للعملِ.

يرفسُ البابَ بقدمِه ويخرجُ، يدوِّي أزيزُ الرَّصاصِ ويسقطُ قتيلًا على عتبةِ البابِ، تنغلقُ ستارةُ المسرحِ، يدوِّي تصفيقُ الحضورِ ويحني سارتر رأسَه تحيةً لهم.

أغمضُ عينيَّ على شيءٍ من الزَّهوِ بهذهِ الإشاراتِ، بي، بقبيلةِ الرِّجالِ والكلماتِ التي كانتْ تحفُّ بي، بما أنا كثيرٌ به، وبما كانوا هم جميعُهم خواءً منه، أهتفُ بي: أنتَ تعرفُ أنَّ العصافيرَ ليستْ تفرِّقُ ما بينَ وجهك والشَّجرِ المتصاعدِ نحوَ السَّماءِ، تحطُّ وتلتقطُ الحَبَّ منْ فجوةٍ في الجبينِ، وتمضي بهِ نحوَ أجداثِهم، كلَّما سقطتْ حَبَّةٌ نهضتْ جثَّةٌ، حتَّى إذا ما استوَوا كانَ برقُ الحياةِ يخطفُ أبصارَهمْ، كلَّما عَشِيَتْ جثَّةٌ انحنتْ تنبشُ الأرضَ عن قبرِها، تتوارى بهِ، فاحفظْ الآنَ مُزنةَ وجهك، لستَ المسيطرَ حينَ الذي ارتضى الجهلَ خِدنًا راحَ ينصبُ أطلالَه ثم يبكي عليها احفظ الآنَ مزنةَ وجهكَ، احفظْ الآن مزنةَ وجهكَ.

تتذكره يسألك عن كتابك «الكتابة خارج الأقواس»، تعرف أنه لم يقرأه، وتعرفُ أنَّه لو عَنَّ له أن يقلب صفحاتِه

لما أتسع فهمُه لشيءٍ مما جاء فيه، ولكنّك تعرفُ كذلك أنَ من كتبوا تقاريرَهم اتخذوا ممّا جاء فيه شواهدَ على ما سعوا لاتهامِك بها لا يجوزُ بعدَه أن تكون ممّن ينالُ شهادةً من جامعةٍ كنتَ تتوهمُها حرمًا للفكرِ الحرِّ حتى تبيَّنَ لك أنَّ الفكرَ الحرَّ غدا فيها محرّمًا.

– ايش تقصد بالكتابة خارج الأقواس؟

– ما دخل هذا الكتاب في الرسالة التي قدمتها للجامعة ؟

– مجرد سؤال..

أغمضُ عينيَّ، صمتٌ يعمُّ أرجاءَ الغرفةِ ثم يدويّ صوتُ جدّي راضي في أرجاءِ المكانِ:

– لا وأنا أبو عبيدْ، تراني ما ذمّرتْ فيكم، وإذا ما احتجتوني تراني ماني في حاجتْكمْ.

يتابعُ طه حسين عمامتَه، يراها بقلبِهِ تتقاذفُها أمواجُ البحرِ، تلتهمُها الحيتانُ وتلتهمُ معها تلك العمائمَ واللحى والسَّاعةَ السوداء في الضّحى، يحتضنُ سارتر كبرياءَ هوجو وثباتِه على موقفِه، يحملُ جثَّته من على عتبةِ البابِ ويتوارى خلفَ كواليسِ المسرحِ.

يأخذُ جدّي بيدي، يجوسُ بي عبرَ وادٍ قاحلٍ، يرتقي جبلًا، أزيلُ معه حجارةً تتراكمُ على مدخلِ غارٍ، تتقصَّفُ أظافري، تقطرُ أصابعي دمًا ورائحةُ جثثِ الموتى تفوحُ من داخلِ الغارِ:

- الصَّباحْ رباحْ

يسندُ رأسَه على حجرٍ وينامُ، صوتُ ذئابٍ تدنو منَا وفحيحُ أفعى، أرتجفُ رعبًا، أتماسكُ خشيةً أنْ يعرفَ جدّي ذلكَ فيُلحِقُني بمنْ أودعَهم في الغارِ.

- من أنا يا عيسى؟

- أنتَ كلُّ أولئكَ.

- على ما بينَهم من تفاوتٍ؟

- على ما بينَهم من اتفاق.

يخرجُ عيسى من الغرفةِ، يخرجُ طه حسين وسارتر، ويخرجُ كذلكَ جدّي من رأسي، أحاولُ أنْ أغمضَ عينيَّ ولا أستطيعُ، أراهم يستديرونَ حولي، ثلاثةً كانوا يفحصون أهليتي للالتحاقِ بالكُلِّيَّةِ، مزهوًّا بعشقي للعربيَّة جئتُهم، أرِدُ حماها، لا أشيمُ بروقًا تلوحُ غيرَ بروقِها.

- الثاني على مستوى المملكةْ وجايْ تسجِّل عندَنا؟

كانَ مسجِّلُ الكلّيّةِ يسألُني يومَ أن حملتُ إليهِ أوراقي، ناصحًا لي أنْ أبحثَ عن تخصّصٍ غير اللغةِ العربيّةِ، عن تخصّصٍ محترمٍ كما انزلقَ لسانُه وقالَ، التقطتُ عثرةَ لسانه:

– ليهْ ؟ تخصُّصْ اللغةْ العربيّةْ غيرْ محترمْ؟

– آخرتْها راحْ تطلعْ مدرّسْ لغةْ عربيّةْ.

يستديرونَ حولي، يرشقُني الثلاثةُ بأسئلتِهم، وكنتُ كلّما فرغتُ من الإجابةِ على سؤالٍ توجّستُ من السُّؤالِ الذي يليه: ماذا لو سألوكَ عن شرحِ ابنِ عقيلٍ أو زادِ المستقنع، ماذا لو سألوكَ عن كتابٍ من تلكَ الكتبِ التي التقطتْ أذناكَ حديثَ القادمينَ من دارِ التَّوحيدِ عنها، والتي لم تكنْ قد سمعتَ بها من قبلُ، يطلقونَ آخرَ ما في جعبتِهم من الأسئلةِ:

– ماذا تحفظُ من الشِّعرِ؟

بنشوةِ من حسمَ معركةً مع خصمِه رحتُ أنشدُ موشّحَ أيُّها السّاقي إليكَ المُشتكى، على وجهِ واحدٍ منهم لاحتْ علامة الرضا، وقطّب اثنانِ منهم حواجبَهم، كنتُ كلّما مررتُ من غصنٍ في الموشّح إلى غصنٍ زادتْ علامةُ رضا أحدِهم وضوحًا، وزادت حواجبُ الآخرينَ تقطيباً.

– تذكَّرْ يا ولدي أنّكَ متقدّمٌ لكلّيّةِ الشَّريعةِ.

قالَهَا مصطفى وقد استفزَّه راحُ الموشَّحِ ومسَّ وقارَه نديمُها الذي همتُ في غرته:

- قسمُ اللغةِ العربيّةِ يا سيّدي.

قلتُها مصحِّحًا، وأكملتُ كمنْ يذكِّرهم بها نسوهُ أو تناسوه:

- والأدبُ، كما قالَ الأخطلُ، يا سيّدي، لا دينَ له.

راحَ مصطفى ينقرُ بطرفِ قلمِه على المنضدةِ، والتقطَ راشدٌ أوراقي يقلّبُها، زادتْ ابتسامةُ الرضا على محيّا الشّيخ علي بكر الكَنوي إشراقًا وأشارَ لي بالمغادرةِ وكأنّما كانَ يجنّبني الوقوعَ في شرَكِ أسئلةٍ محتمَلةٍ لا أحيطُ بإجابةٍ لها.

بعدَ ما يقاربُ العقدينِ منَ الزّمنِ كانَ مصطفى الذي ذكّرني بأنّني متقدمٌ لكلّيّةِ الشّريعةِ يكتبُ تقريرًا سرّيًّا عن رسالتي التي كانَ قد ناقشَها وأوصى بمنحِ صاحبِها الدرجة، يكتب تقريرًا ينقض به في السرِّ ما كانَ قد أوصى بهِ في العلنِ، وكانَ راشدٌ الذي قلّب أوراقي، وقد غدا سيِّدًا للجامعةِ، يعيدُ تقليبَ أوراقي ويصادقُ على ذلك التقريرِ، ثمّ يساومُني على بقائي في الجامعةِ.

بعد ما يقاربُ العقودَ الثّلاثةِ من تآمرِهم تكشّفتْ الحقائقُ وفاحتْ رائحةُ ذلكَ التقريرِ وتلكَ المصادقةِ،

قالتْ لي زوجتي وهي تتابعُ ذلكَ الوسمَ الذي يطالبُ بإعادةِ الدّرجةِ لي:

– طالبْ بحقِّك في الدرجةِ العلميّةِ التي سحبوها منكَ فقد تغيَّرتْ الأحوالُ.

– أنتِ تعرفينَ أنّي لم أكنْ حريصًا عليها وأنا أهيئ أوراقَ العملِ، فهلْ يليقُ بي أنْ أحرصَ عليها وأنا ألملمُ أوراقَ العمرِ، دعيها يا عائشةُ عارًا لا يبرأونَ منه ما عاشوا، وإذا ماتوا طاردَهم في قبورِهم.

– ولكنها شهادتُك.

– بل شهادتُهم، وليستْ شهادةً أعتزُّ بها تلكَ الشَّهادةُ التي لم أعدْ أحترمُ من يمنحُها لي.

لم تكنْ زوجتي تنعي عليَّ شيئًا من صِفاتي كما كانتْ تنعي عليّ ما تصفُه بالعنادِ، ولم أكن أتشبثُ بشيءٍ كما كنتُ أتشبثُ بهذا العنادِ، كأنّما هو آخرُ بعيرٍ تركَه لي أجدادي، وآخر نخلةٍ في حقولِهم التي لم تعدْ خضراءَ.

– العنادُ أساسُ الكُفر.

هكذا يقولُ البدوُ لبعضِهم حينَ يتشبّثُ واحدٌ منهم بموقفِه لا يتزحزحُ عنه وكأنّما هو يتشبّثُ بسلسلةِ نسبِه

وإرثه المستحَقّ من أجداده، يتواصَون بتركِ العنادِ ثم لا يتباهونَ بشيءٍ كما يتباهونَ بالعنادِ فيتّخذونه اسمًا لأبنائهم، كأنّما هم يذكّرونَ بعضَهم بهِ حينَ يتناهون عنه، ولمْ يكنْ من كُفرٍ لديهم أشدّ مجلبةً للخزيِ منْ أنْ ينكسَ الرّجلُ فيتراجعَ عنْ رأيِه وموقفِه، ولمْ يكونوا يزدرونَ أحدًا كازدرائهم لأولئكَ الذينَ يغيِّرونَ مواقفَهم بأسهلَ ممّا يغيّرونَ سراويلَهم القذرةَ..

- لا يمكنْ للبدويِّ أنْ يكونَ حداثيًّا.

هكذا قالَ لي بكر باقادر ونحنُ نصعدُ درجَ النّادي، وحينَ رأى في عينيَّ نظرةَ إنكارٍ قالَ كمن يبرّرُ ما يراه:

- البدويُّ متشبّثٌ برأيِه، لا يعرفُ التّسامحَ، ولا يؤمنُ بتعدّدِ الآراءِ.

- أنتَ لا تعرفُ البدوَ يا دكتور، لا تعرفُ معنى ارتباطِ الرّأيِ لديهم بالمسؤوليةِ عنه، لا تعرفُ معنى أنْ يتركَ البدويُّ للبدويِّ حريةَ اختيارِه للموقفِ الذي يختارُه شريطةَ تحمُّله مسؤوليةِ ذلك الاختيارِ، مذكّرًا إيّاه:

- ترى كلْ شاةْ معلّقةْ بكراعَها.

- العنادْ أساسْ الكفرْ.

هكذا كانتْ أمّي تقولُ كلّما رأتني أصرُّ على فعلِ ما سبقَ أنْ نهتني عن فعلِه، وكنتُ لا أخطئُ علاماتِ الرّضا بما أفعلُ على وجهِ أبي، وها أنا بعدَ عقودٍ من الزّمنِ أتساءلُ عمّا إذا كانَ العنادُ، الذي كانوا ينهونَ عنه، هو الذي كانَ عدّتي وعتادي، ولولاه لكانَ سهلًا عليهم كسري.

يتلطّفُ محمد مريسي الحارثي في الحديثِ معي، محاولًا أنْ يجدَ لنفسِه طريقًا بينَ صداقةٍ تربطُ بيننا ومسؤوليتِه عن عمادةِ الكلّيةِ، يتلطّفُ وهو يشيرُ إلى ما وردَ في خطابِ سيّد الجامعةِ بردّ رسالتي العلميّةِ التي كانتْ الكليةُ، وقبلَها اللجنةُ العلميّةُ ومجلسُ الدراساتِ العليا، قد أقرّتها:

- طلبوا منّي استتابتك.

انتابتني نوبةُ ضحكٍ، بالغتُ فيها لتهوينِ ما كانَ يراهُ من قسوةِ إدارةِ الجامعةِ عليّ وخذلانها لما أقرّته الكليّةُ من قبلُ:

- شوفْ يا أبو مشهور، تراني على مذهبْ الشّاعر:
وأمّا عنْ هوى ليلى وتركي زيارتَها فإنّي لا أتوبُ.

نصحَني بتركِ العنادِ، ثمّ نفضَ يدَه يائسًا منّي حينَ عدتُ أضحكُ ثانيةً.

كانَ وكيلُ الكلّيةِ صالح بدوي قدْ طلبَ منّي قبلَ

ذلـكَ أنْ أتوقـفَ عـن الكتابـةِ ريثـما يمـرُّ موضـوعُ رسـالتي بسـلامٍ:

- مقالاتُـك ومحاضراتُـك تستثيرُهم ضدَّك وهـم يحتفظون في ملفّـك بكلِّ مـا تكتب.

- لـن أتوقـفَ، الكتابـةُ عهـدٌ بينـي وبـين سـاحةٍ ثقافيّـةٍ هـي أوسـعُ مـن جامعتِهـم.

نصحَنـي كذلـك بـتركِ العنـادِ، ولم أصـغِ لنصيحتِـهِ، أصغـى لهـذهِ النَّصيحةِ زمـلاءُ آخـرون، توقّفـوا عـن الكتابـةِ أو كتبـوا بأسـماءَ مستعارةٍ فمرّوا بسـلامٍ، ولـو اسـتقبلتُ مـن أمـري مـا اسـتدبرتُ لفعلـتُ مـا فعلـتُ، ولـزادني فرحًـا مـا يشـعرونَ بـهِ مـن غيـظٍ.

عـرّجَ الحديثُ الدائـرُ بيني وبـين صديقـي عـالي القـرشي عـلى مـا تتنابـزُ بـه القبائـلُ مـن ألقـابٍ يتنـدّرونَ بهـا عـلى بعضِهـم، تذاكرْنـا بعضَهـا، وبـادرَ إلى سـؤالي:

- إيش نبزَةْ قبيلتْكم، السِّرحة؟

- وما تقولْ لأحد؟

- ما أقولْ لأحدْ.

- راس الحمار..

ضحكَ عالي متسائلًا عن سرِّ هذه النّبزةِ، شاركتُه الضَّحكَ وأكّدتُ عليه ألّا يخبرَ بها أحدًا، فعادَ يسألُ عن السَّببِ:

- العناد، يقولون إنْ اللي في راسْ السّريحي في راسُهْ، ما يغيّرهْ شيْ وما يتراجعْ عنّه.

عادَ عالي يضحكُ:

- والله صدقوا إذا كانوا جماعتْك مثلكْ.

تتناثرُ أوراقُ العمرِ حولي، يوقظني جدّي صباحًا، يضع على رأسي كلمةً تاجًا:

- صِليبْ راسْ يا سعيدْ

- ولْذكمْ يا جَدْ.

- لا تنسَ، ترى لهم في ذمّتكْ جريمةْ ما ارتكبتْها.

قالَ جدّي ضاحكًا، ورحتُ أجمعُ معه عظامَ الموتى، يلتقطُ عظمةَ ساقٍ، يضربُ بها حجرًا، تنكسرُ فيتأملُ داخلَها:

- تعرفْ إيشْ يبرمْ العظمْ على المخْ؟

- أيش يا جدْ؟

- رضاعةٌ سنتينْ وسعوطْ السَّمنْ.

يرمـي بالعظـم مـن يـدِه ويشـيرُ إليّ بـأنْ أهيـئ لنفـسي مكانًـا معـه في الغـارِ، أستلقي إلى جـوارِه، يبسـطُ لي ذراعَـه، أتوسَّـدُ سـاعدَه، وأحـدّقُ في سـقفِ الغـارِ، أرى فيـه نجومًـا تتـلألأُ وقمـرًا أحمـرَ يتوسَّـطُ السّـقفَ.

أتقلَّـبُ في فـراشي وأعجـبُ مـن ذاكـرتي، كيـفَ ظلّـتْ محتفظـةً بتلـك الجثـثِ طويـلًا، كيـف ضلَّـتْ نفـسي مـا عاهدتني عليه من خلعِهم وكأنَّ مـا حـدثَ لم يحـدثْ، وكأنّ مـن تآمـروا عليـه رجـلٌ غـيري، أمتُّهـم كـما يمـوتُ السّـوءُ بـتركِ ذكـرِه، قلـتُ لصاحبـي وقـد رأيـتُ في عينيـه بعـضَ الأسـى عـليّ:

- اطمئـنْ يـا صاحبـي، فـوالله الـذي لا إلـهَ إلا هـو لم يؤرِّقْنـي مـا فعلـوه ليلـةً واحـدةً.

ولم يكـنْ يـؤذي نفـسي قـطُ إلا أولئـك الذيـن ينتـصرونَ لي ثـم لا يجـدونَ ضـيرًا في أنْ يصفـوني بالضَّحيّـةِ، كأنَّـما هـم يصادقـونَ عـلى انتصارِهـم عـليّ مـن حيـثُ لا يشـعرون.

أعجبُ من نفسي تستعيدُهم وأنـا الـذي لم أُثقـلْ عليهـا بغضـبٍ حملتُـه عليهـم قـطْ، لم أنزلْهـم منزلـةَ الأنـدادِ الذيـن يسـتحقّونَ أنْ أوقـدَ لهـم مرجـلَ الغضـبِ في صـدري ثـم

أسقيهم قهوتَه، استيقظَ في صدري بدويٌّ ينظرُ لخصمِه من علٍ ثم يشيحُ بوجهِه عنه:

- لا واللهْ، ما هو سَدادْ في رجَّالَنا.

أخرجتُهم وأغلقتُ خلفَهم البابَ، فما الذي أتى بهم الآنَ؟ ما الذي أخرجهم من مقبرةِ النِّسيانِ، أعجبُ من نفسي كيفَ أخلفتْ بعدَ كلِّ هذا العهدِ ما بيني وبينها من عهدٍ.

- ملأوا بكَ فراغَهم، فلا تمنحْهم من نفسِك فراغًا لا يستحقونه، اخلعْهم كما تخلع ما ضاقَ عليكَ من ثيابِكَ، وامضِ في سبيلِكَ.

أعجب من نفسي، أنظر إليها من علٍ، ألقي بالجثثِ الرّطبةِ خارجَ الغارِ، وأقلِّبُ العظامَ ثم لاً أجدُ من بينها عظمًا مبرومًا على المخِّ أو عظمًا يصلحُ غليونًا.

عـادتْ جوانـبُ الغـارِ تطبـقُ عـلى صـدري، التفـتُّ ولم أجـدْ جـدّي، كنـتُ وحيـدًا، راحـتْ جوانـبُ الغـارِ تتقلَّـبُ في الأشـكالِ والهيئـاتِ، وجدتُنـي في غرفـةٍ مظلمـةٍ أقلِّـبُ أوراقـي، ستارةٌ ثقيلـةٌ تنسدلُ على النّافـذةِ وأخرى علـى بـابِ الغرفـةِ، مسـتلقيًا كنـتُ عـلى فـراشٍ رثٍّ أحـدِّقُ في سـقفِ الغرفـةِ، سـمعتُ خطـواتٍ تقتربُ مـن البـابِ، تذكَّـرتُ غرفـةَ عابـدٍ حـينَ زرتُـه في المرَّةِ الأولى بعـد إصابتِـه بالمـرضِ.

- ما تعرفْ من اللي جابْ له كتابْ شمسْ المعارفْ؟

يعيـدُ والـدُ عابـدٍ السـؤالَ علـيَّ كلَّـما زرتُـه، كأنَّـما كانَ يريـدُ أنْ ينتـزعَ منّـي اعترافًـا، أو أدلَّـه عـلى مـنْ كانَ السّـببَ وراءَ الـدّاءِ الـذي افـترسَ عقـلَ ولـدِه، أقسـمتُ لـه أنّي لا أعـرفُ، وسـألْتُه إذا كانَ بإمكاني أنْ أراه:

- عابدْ محجوبْ.

قالـتْ أمُّـه ولم أفهـمْ، رجوتُهـا أنْ أراه، قـادَني والـدُه إلى غرفـةٍ في فنـاءِ بيتِهـم الخلفـيِّ، عـلى بـابِ الغرفـةِ كانـتْ هنـاكَ سـجّادةٌ معلَّقـةٌ، أزاحَ والـدُه السُّـجادةَ قليـلًا واقتربْنـا مـن البـابِ، أسـدلَ السُّـجادةَ خلفَنـا ثـمّ فتـحَ البـابَ قليـلًا ودخلْنـا، في العتمـةِ رأيـتُ وجـهَ عابـدٍ، وعـلى النّافـذةِ رأيـتُ

سجّادةً معلّقةً تحجبُ الضَّوءَ كذلكَ، تركَنا والدُه، سألتُ عابدًا:

- ليشْ قاعدْ في الظّلمةْ.

- محجوبْ.

- يعني إيهْ محجوبْ؟

- ما أخرجْ ولا أشوفْ ضوْ الشّمسْ أربعينْ يومْ.

- ليهْ؟

- الشيخْ قالْ لهمْ يحجبونّي منْ شانْ فيهْ جنّي لِبِسْني.

شعرتُ بقشعريرةٍ تسري في جسمي:

- في الأوَّلْ زعلتْ وكنتْ متضايقْ، بسْ بعدْ كدا تعوَّدتْ على الظُّلمةْ، في الظُّلمةْ صرتْ أشوفْ أحسنْ، الضَّوْ كانْ يلخبطْني، ما يخلّيني أشوفْ..

- أوهْ..تشوفْ بقلبَكْ؟ ياحظَّكْ

ومنْ تحتِ كومةٍ من الملابسِ أخرجَ صندوقًا:

- أخذوا منّي كتابْ شمسْ المعارفْ بسْ ما يدرونْ عنْ هذا الصَّندوقْ.

- مِنْ فينْ جبتْ كتابْ شمسْ المعارفْ؟

- مالَكْ شُغُلْ.

- أبوكْ يحسِّبْ إنّي أنا جبتُه لكْ.

- أنا قلتْ لهْ ما هو إنتَ.

فتحَ الصّندوقَ، ثمَّ أخرجَ منه قواقعَ وعظامًا وجلودًا وأوراقًا مرسومةٌ عليها دوائرُ ومربعاتٌ ومثلثاتٌ، حروفٌ معتدلةٌ وأخرى مقلوبةٌ وثالثةٌ مائلةٌ، كتاباتٌ مستقيمةٌ وأخرى تدورُ حولَ نفسِها.

- أيشْ هذي الحاجاتْ؟

- منْ شانْ تحضيرْ الخُدّامْ.

- ايشْ الخُدّامْ؟

- الجنْ اللي يخدمونَكْ ويجيبونْ لكْ أيْ شيْ تبغاهْ.

- بسمْ اللهْ الرّحمنْ الرّحيمْ..طيِّبْ ليشْ فيهْ حروفْ مكتوبةْ على ورقْ وحروفْ مكتوبةْ على جلدْ وحروفْ ملوّنةْ؟

- منْ شانْ كلْ حرفْ لهْ الشيْ اللي ينكتبْ عليهْ، حروفْ تنكتبْ على جلدْ وحروفْ على ورقْ وفيهْ حروفْ

تنكتبْ على العظامْ، وبعدينْ هذي مو ألوانْ، فيه حروفْ تنكتبْ بالحبرْ وحروفْ بالزَّعفرانْ، وحروفْ بالكُركُمْ، وهذا الحرفْ لازمْ ينكتبْ بالدَّمْ.

– بالدّمْ؟ أعوذْ باللهْ .. دمْ أوادمْ؟

– لا يا شيخْ .. دمْ وبسْ، مو شرطْ دمْ أوادمْ، طبعًا لو دمْ أوادمْ يكونْ أقوى، أنا جبتْ دمْ غنمْ منْ عندْ الجزارْ..

صمتَ قليلًا، تلفَّتَ حولَه:

– أقولْ لكْ على حاجةْ وما تقولْ لأحدْ؟

– قولْ.

– قولْ واللهْ ما أقولْ لأحدْ.

– واللهْ ما أقولْ لأحدْ.

– فيه حروفْ لو انكتبتْ على عظمْ إنسانْ خُدَّامَها كبارْ ويصيرونْ خُدّام للي كتبْها.

– عظمْ إنسانْ؟ إنسانْ حقيقي؟

– طبعًا إنسانْ حقيقي.. أقولْ لكْ على شي؟

– قولْ قولْ.

- أنا رحتْ للمقبرةْ، قلتْ يمكنْ ألاقي قبرْ مفتوحْ وآخذْ منّه عظمةْ إنسانْ.

- ما خفتْ؟

- كنتْ مرّةْ خايفْ، بسْ كنتْ أبغى عظمةْ إنسانْ، واللهْ كنتْ مستحمِّسْ ومستعدْ إنّي أحفرْ قبرْ لو ما لقيتْ قبرْ مفتوحْ.

- وبعدينْ ؟

- شافْني حارسْ المقبرةْ، وطردْني.

- بسْ ليشْ هذا كلُّه؟

- منْ شانْ يحضرونْ الجنْ خُدّامْ الحروفْ.

- إنتَ أصلًا ايشْ تبغى منْ الجنْ خُدّامْ الحروفْ ؟

- بغيتْ أطلبْ منهم يجيبونْ لي كتبْ .. كتبْ كثيرةْ وكمانْ حاجاتْ ثانيةْ.

- ايشْ الحاجاتْ الثانيةْ ؟

- حاجاتْ يعني .. انتَ عارفْ.

- ماني عارفْ شيْ، المهمْ حضروا الخدّامْ؟

- حصلْ شيْ رهيبْ، بعد ما كتبتْ كلْ هذي الحروفْ ورسمتْ الأشكالْ على الأوراقْ والجلودْ والعظامْ قعدتْ أقرا التعاويذْ والطلاسمْ المكتوبةْ خمسيَّةْ مرَّةْ وبعدَها دُختْ.

- وبعدينْ؟

- وأنا دايخْ شفتُهْ يخرجْ من الجدارْ.

- الجنّي؟

- ما هو واحدْ .. يمكنْ ثلاثةْ.

- بسمْ اللهْ الرَّحمنْ الرَّحيمْ، وبعدينْ؟

- خفتْ وقعدتْ أصرخْ وأصرخْ وأصرخْ، وجا أبويا وأمّي يسألونْ إيشْ فيه، وأنا أقولْ لهم طلعوا لي من الجدارْ، يقولونْ من اللي طلعوا لكْ من الجدارْ، أقولْ لهم الجنْ طلعوا من الجدارْ، أمّي قعدتْ تبكي وأبويا قعدْ يقرا عليَّا، بسْ المشكلةْ إنّي صرتْ كلْ ما أنامْ يطلعونْ لي، ومنْ شانْ كذا أخذوني للشّيخْ يقرا عليّا.

كنتُ أرتجفُ خوفًا، وأصابتني نوبةُ هلعٍ حينَ أشارَ إلى ثقبٍ في الجدارِ:

- منْ هنا طلعوا لي، زيْ الدّخانْ في الأوّلْ، وبعدينْ صاروا واضحينْ.

قبلَ أنْ أغادرَ غرفتَه همسَ في اذني:

- لا تقولْ لأهلي باللي قلتْ لكْ عليه، أنا ما قلتْ لهم على كلْ شيْ.

وأكملَ:

- كمانْ لا تقولْ لأهلكْ.

- ليه؟

- لو قلتْ لهمْ ما راحْ يخلّونكْ تجي عندي.

تلبستْ عابدًا الكتبُ قبلَ أنْ تتلبَّسَه الجنْ، ولم تكنْ أمُّه مخطئةً تمامًا حينَ قالتْ: جنَّنتُه الكتبْ اللي تقرونَها، كدتُ أنْ أصبحَ مثلَه ذاتَ مرَّةٍ حينَ صرختُ وأنا نائمٌ فزعًا:

- هاتوهْ..هاتوهْ.

- سمّي بالرَّحمنْ.

قالتْ أمّي وهيَ توقظُني من ذلكَ الكابوسِ.

- أخذوا كتابي.

- سمّي بالرَّحمنْ، كتابَكْ جنبَكْ، هذا هوَّ.

تناولَ أبي الكتابَ، ورمى بهِ فوقَ دولابِ الملابسِ:

- ريّح عقلَكْ من القراية شويّة.

- أحسنْ شيْ، واللهْ أنا خايفةْ عليهْ تجنِّنْهْ هذي الكتبْ.

قالتْ أمّي وهيَ توافقُ أبي على ما فعلَ، بعد أسبوعٍ صعدتُ على كرسيٍّ واستعدتُ كتابي، حرصتُ بعدَها على أنْ أقرأَ بعيدًا عن نظرِ أمّي وأبي ما استطعتُ.

لم يكنْ لي أصدقاءٌ أصطفيهم وآنسُ إلى الحديثِ معهم سواه، ورغمَ بعدِ المسافةِ بينَ بيتِه وبيتِنا إلّا أنَّ ذلكَ لم يحلْ بيني وبينَ زياراتي المتكرِّرةِ له حينَ أصابَه المرضُ، لم يكنْ ذلكَ لما كانَ يربطُ بيننا من صداقةٍ فحسبُ، وإنّما لما كانتْ تمنحُني قصصُه مع الكتبِ والحروفِ والجنِّ من إحساسٍ بالدَّهشةِ ممزوجٍ بشيءٍ غيرَ قليلٍ من الخوفِ، كانَ أهلُه يعتبرونَ حالةَ المسِّ التي أصابتْه فضيحةً يتكتَّمونَ عليها ويخفونَها عنْ كلِّ من يسألُ عنه، في كلِّ مرَّةٍ أزورُه كانوا يؤكِّدونَ لي:

- إذا سألكْ أحدْ في المدرسةْ عنْ عابدْ قولْ وجعانْ وبسْ.

- طيِّبْ إذا سألوني ايشْ وجعُه؟

- قولْ لهمْ ما أدري، إذا تبغانا نخلّيكْ تقعدْ معْ عابدْ لا تقولْ لأحدْ الكلامْ اللي يقولُهْ لكْ.

كانَ ينتفـضُ كالمحمـومِ حـينَ دخلـتُ عليـهِ، وقبـلَ أنْ أجلـسَ بـادرَني يقـولُ:

- البارحْ حصلتْ مصيبةْ.

- أيشْ حصلْ؟

- أخذوني معاهم.

- مينْ؟ الجنْ؟

- إيوا

- كيف؟

- خرجوا زيْ كلْ مرّةْ منْ هذا الخرمْ.

وأشـارَ إلى نفـسِ الثُّقـبِ الـذي عـادةً مـا يشـيرُ إليـهِ وأَصبحـتُ أحـرصُ أنْ أجلـسَ بعيـدًا مـا اسـتطعتُ عنـه:

- وبعدينْ؟

- شـالني واحدْ منهم على كتفُه، وخرجـوا بي مـن نفسْ الخرمْ.

- كيفْ ؟ إنتَ نملةْ؟

- مـا أدري كيـفْ، بـسْ خرجـوا بي مـن نفسْ الخـرمْ، لّمـا

قرّبوا منّه توسّعْ، صارْ فتحةْ كبيرةْ، وبعدينْ طاروا بي.

راحَ يحدِّثُني كيفَ رأى تحتَه بيوتًا وشوارعَ، ثمَّ أرضًا قاحلةً لا شجرَ فيها، ثمَّ أرضًا مليئةً بالعشبِ والشَّجرِ وجبالًا شاهقةً وأنهارًا

– تفتكرْ الأنهارْ اللي درسناها في الجغرافيا؟

– إيوا، النيلْ والفراتْ وكمانْ...

– دجلةْ، شفتَها كلَّها تحتي وهمْ طايرينْ بي.

– ما كنتْ خايفْ؟

– كنتْ ميِّتْ من الخوفْ، أصرخْ نزِّلوني نزِّلوني، في الأخيرْ نزَّلوني في مكانْ كلُّه شجرْ، في وسَطْ الشَّجرْ كانتْ فيه بيرْ، ربطوني بحبلْ ونزّلوني في البيرْ، كانتْ مويةْ البيرْ بيضا مثلْ الحليبْ، وعلى جدرانْ البيرْ كانتْ فيه صورْ بناتْ، كلْ بنتْ أحلى من الثّانيةْ، بسْ كلْ ما نظرتْ في صورةْ بنتْ اختفتْ، وبعدينْ سحبوني من البيرْ..

كانَ يلهثُ وهو يروي لي ما حدثَ له، وكنتُ أصغي إليهِ مندهشًا، راحَ يحدِّثُني كيفَ أنَّه أصبحَ أبيضَ اللونِ:

– عارفْ ولدْ الحلواني اللي معانا في الفصلْ؟ صرتْ أبيضْ مثلُهْ وشعري صارْ ناعمْ مثلْ شعرُهْ كمانْ.

سكتَ قليلًا كمنْ يتذكَّرُ:

- عرفتْ واحدْ من الجنْ اللي شالوني، أكبرْ واحدْ فيهم، عيروضْ فاكِرْ عيروضْ؟

- خادمْ سيفْ بن ذي يزنْ اللي تجوَّزْ عاقصةْ الجنيّةْ أختْ سيفْ.

- ايوا هوَّ، عرفتُهْ منْ شكلُهْ، منْ يومْ ما قريتْ القصَّة وأنا أتمنّى أشوفُهْ.

- يخوّفْ شكلُهْ؟

- كثيرْ، بسْ كانْ مرّةْ طيّبْ معايا، لّما كانوا يطلّعونّي من البيرْ هو اللي مدْ ليّا يدُّه وخرّجني.

- طيِّب وبعدْ ما خرّجوكْ من البيرْ؟

- نفخوا عليّا حتّى نشفتْ، وبعدينْ شالْني عيروضْ على كتفُهْ وطارْ، وطاروا الجنْ الثّانينْ معاهْ.

يُطرِقُ عابدٌ، ثم يعودُ يجولُ بنظرِه في أرجاءِ الغرفةِ، تتّسعُ حدقتا عينيه وهو يرمي بنظرِه نحوي، لم يكن في حقيقةِ الأمرِ ينظرُ إليّ، كأنّما كانَ ينظرُ لأحدٍ يقفُ خلفي، ألتفتُ ولا أرى أحدًا، يواصلُ حديثَه ورجفةٌ تعتري صوتَه:

- تصدِّقْ يا سعيدْ، بعدْ ما خرجتْ من البيرْ صارْ

نظري أقوى، صرتْ اشوفْ كلْ شيْ على الأرض وأنا طايرْ، شفتْ ناسْ تتقاتلْ، وشفتْ بناتْ وأولادْ يرعونْ الغنمْ ويتغازلون، كنتْ أقدرْ أشوفْ النّملْ على الأرضْ وكمانْ أسمعْ صوتُهْ وهوَّ يتكلَّمْ..

- هوَّ النّملْ يتكلَّمْ؟

- أيوا، ما تفتكرْ كيفْ الأستاذْ قالْ لنا إنّه سيّدْنا سليمانْ كانْ يتكلَّمْ معْ النَّملْ؟

- طيِّبْ، وبعدينْ؟

- في الأخيرْ وصلْنا لبرحةْ كبيرةْ، نزّلوني فيها، مليانةْ ناسْ شكلُهم غريبْ.

- يمكن يكونون جن؟

- لا، إنسْ، بسْ شكلُهمْ زيْ الجنْ، يمكنْ جنْ، ما أدري.

- طيِّبْ، وبعدينْ؟

- قعَّدوني قُدَّامْ واحدْ جالسْ على كرسي زيْ الكرسي حقْ المديرْ، سألني إيشْ إسمَكْ؟ قلتْ لهْ عابدْ، سألني إنتَ سنةْ كمْ؟ قلتْ لهْ سنةْ خامسةْ، قالْ إيشْ تحبْ؟ قلتْ لهْ أحبْ القرايةْ، قالْ لي إيشْ تحبْ تقرا؟ قلتْ لهْ كلْ شيْ

ألقاهْ مكتوبْ أقراهْ، اللي يجي في يدّي، قال لي أيشْ أكثرْ شيْ تحبْ تقراهْ؟ قلتْ لهْ القصصْ، قالْ قولْ لي اسمْ قصّةْ قريتَها، أوّل ما طِلِعْ في بالي قصّة همسْ الجنونْ، فاكرْها؟

– فاكرْها.

– أنا سلَّفتكْ إيّاها تقراها، المهمْ لما قلتْ همسْ الجنونْ قعدوا كلُّهم يضحكونْ عليّا، اللي جالسْ على الكرسي سألْني طيِّب مينْ اللي كتبْها، من الخوفْ والرَّبكةْ نسيتْ اسمْ اللي كتبْها..

ومضى عابدٌ بعدَ ذلكَ يحدِّثني كيفَ أنَّه حينَ التفتَ وجدَ مؤلِّفَ همسِ الجنونِ جالسًا بينَ الحاضرين:

– كانْ جالسْ زعلانْ، بسْ لَمَّا شفتُهْ تذكَّرتْ اسمُه على طولْ، قلتْ لهْ نجيبْ محفوظْ

– شُفتْ نجيبْ محفوظْ؟ منْ جدْ؟

– واللهْ شفتُهْ، مو بسْ نجيبْ محفوظْ، شفتْ غيرُهْ، يمكنْ كلْ اللي قريتْ كتبْهمْ شُفتُهمْ..

– شُفتْ طهَ حسينْ؟

– إيوا.

– طِلِعْ أعمى مِنْ جِدْ، أو بسْ يلبسْ نظارةْ سودا زيْ عمْ محمَّدْ باعبادْ؟

– أعمى، بسْ يقولونْ يشوفْ أحسنْ من المفتِّحينْ.

– يا حظُّه، لا زمْ يكونْ يشوفْ بقلبُهْ، أقولْ لكْ على شيْ؟

– قولْ.

– مرّاتْ أقولْ لنفسي يا ليتني إنولدتْ أعمى مِنْ شانْ أشوفْ بقلبي.

– ترى تقدرْ تشوفْ بقلبَكْ حتَّى لوْ ما كنتْ أعمى.

– جرَّبتْ، وما عِرفتْ، طِحتْ على وجهي أكثرْ من مرَّةْ لّما مشيتْ وأنا مغمِّضْ عيني، وصدمتْ في الجدرانْ.

– إنتَ أهبلْ، خلّيتْ أهلَكْ يضحكونْ عليكْ

– مو بسْ ضحكوا، أمّي وأبويا زِعلوا منّي.

– تستاهلْ، يا ليتُهم ضربوكْ كمانْ.

– جدّتي قالتْ لي لّما تشوفْ بسْ بعيونَكْ تنشِغِلْ، ما عادْ تقدرْ تشوفْ بقلبَكْ.

- سيبَنا منْ جدَّتكْ ذحِّينْ، كلْ ما قُلتْ لكْ شيْ قُلتْ جدِّتي قالتْ، تتذكَّر واحدْ اسمُه وديعْ فلسطينْ؟

- ايوا، اللي يكتبْ في المجلّةْ، مرَّةْ قلتْ لي إنَّك كتبتْ لهْ رسالةْ وردْ عليكْ.

- لِقيتُه، كانْ جالسْ هناكْ معاهمْ، هو اللي عِرِفْني، قالْ لي إنتَ ممتازْ بسْ إنتبِهْ للقواعدْ وكمانْ حَسِّنْ خطَّكْ.

- طيِّبْ كيفْ رجَّعوكْ البيتْ؟

- ما أدري، صِحيتْ لِقيتْ نفسي في البيتْ.

- يِمكنْ كنتْ تحلمْ.

- لا لا، ما كنتْ أحلمْ، لمّا صحيتْ كانْ جسمي كلُّه مكسَّرْ من تعبْ الطّيرانْ، ينمِّلْ ويوجعْني كثيرْ، وكمانْ لقيتْ على فراشي ريشةْ.

أخرجَ من صندوقِه ريشةً، راحَ يقلِّبُها بينَ يديهِ ثم أعادَها إلى مكانِها في الصّندوقِ، وخبأَه تحتَ كومةٍ من الملابسِ.

زارَني عابدٌ في المرآةِ طفلًا وقدْ شِختُ، فأعادني طفلًا كما كنتُ، كأنَّما قدْ رأيتُه أو رأيتُ نفسي، بيني وبينَه ما يجعلُني بعضَه ويجعلُه بعضي، مستغرقانِ في عالمِ الغيبِ استغراقَنا في عالمِ الشَّهادةِ، يؤثِّثُ وعيَه بالكتبِ وأُؤثِّثُ وعيي بالحكاياتِ، سكنَني الموتى وسكنَتْه الجنُّ، موتايَ حضورٌ لمنْ غابَ من البَشَرِ، ولم تكنْ جِنُّه غيرَ حضورٍ لما غابَ في البَشَرِ، موتايَ وجِنُّه عالمانِ أقصاهما وعيي حينَ تقدّمتُ في السِّنِّ، وحماهما له موتُه طفلًا، نجا بعالمِه، كأنَّما فرَّ بهِ منْ أنْ يشيخَ معه إذا ما تقدَّم به السِّنُّ، كأنَّما أرادَ أنْ يبقى مستمتعًا بطفولةٍ نقيةٍ لا تشيخُ ولا تشوبُها شائبةٌ.

عادَ عابدٌ ليعيدَ لي طفولتي، حكاياتي القديمةَ، أرواحَ آبائي وأجدادي، ليعيدَ لي تلكَ الأرواحَ التي كانتْ تحفُّ بي كالملائكةِ وأغاني الأمَّهاتِ.

أحدِّقُ فيمنْ حولي، أشعرُ بالحُزنِ عليهم، أرثي لهم، لا يعرفونَ مدى بؤسِهم حينَ خلعوا عنهم طفولتَهم كما يخلعونَ أحذيتَهم وملابسَهم المتَّسخةَ، لا يعرفونَ أنَّهم يخونون طفولتَهم حينَ لا يرونَ في الواقعِ إلّا ما تلمسُه أيديهِم وتراهُ أعينُهم وتسمعُه آذانُهم، يستكبرونَ على يومٍ كانَ العالمُ فيهِ منْ حولِهم مسكونًا بالأرواحِ والأشباحِ،

مسكونًا بما يرونَه وما لا يرونَه، ما يسمعونَه وما لا يسمعونَه، بما تلمسُه أيديُهم وما لا تلمسُه إلا أرواحُهم، كانَ عالمًا ثريًّا حيًّا أينَما تلفّتوا كانتْ الحياةُ تنبضُ في الكائناتِ حولَهم، حتّى الموتِ، الموتُ نفسُه كانَ وجهًا منْ أوجهِ الحياةِ كذلكَ.

لمْ يكنْ لنا أنْ نحيا لولا تلكَ الحكاياتُ، لولا تلكَ الحكاياتُ لَمُتْنا اختناقًا، تضيقُ علينا بيوتُنا، تضيقُ علينا ثيابُنا، تضيقُ علينا أنفسُنا فنوسِّعُها كلَّها بالحكاياتِ، نروي منها ما سمعْنا ونبتكرُ منها ما لم نسمعْ، تُخرِجُنا حكاياتُنا من تشابهِ الوجوهِ، تشابهِ الثِّيابِ، وتشابهِ البيوتِ، تُخرِجُنا إلى عالمٍ تتبدَّلُ فيه الوجوهُ، وتتلوَّنُ فيه الثِّيابُ وترقصُ فيه البيوتُ في السَّاحاتِ، عالمٍ تكتملُ حياتُه بالموتِ، عالمٍ يحلِّقُ في السَّماءِ بعيدًا ثمَّ يهوي شظايا على الأرضِ، يجمعُ شتاتِه كي يولدَ في حكايةٍ جديدةٍ بوجهٍ جديدٍ وثيابٍ جديدةٍ وسماءٍ تَهَبُ الحياةَ كما تهبُ الموتَ.

كانتْ الحكاياتُ واقعَنا الذي نصنعُه حينَ يصنعُنا الواقعُ الذي لا حيلةَ لنا معه، كانتْ الحكاياتُ أجملَ ما في طفولتِنا، طفولتُنا التي لا نخونُها حينَ يخونونَ طفولتَهم أولئك الذين يروحون ينزعون من الواقعِ أجملَ ما فيهِ، ينزعون روحَه، مجرمونَ أولئكَ الذينَ قتلوا طفولتَهم

وحوَّلوا الواقعَ من حولهم إلى حجرٍ أصمَّ وأرضٍ جرداءَ، قَتَلةٌ أولئكَ الذين جرَّدوا الصَّخرَ من مائهِ والأرضَ من عشبِها والزّهرَ من عبيرِه، ألغوا وعيَهم المتفتّحَ بالعالمِ والمنفتحَ على العالمِ، وراحوا يُطلّون من كوَّة ضيّقةٍ يتوهمونَها عينَ العقلِ، ولو أنَّهم عَقلوا قليلًا لما فرَّطوا فيما فرَّطوا فيه، ولأدركوا أيَّ بؤسٍ انتهوا إليه.

كنَّا أطفالًا نحيا على الأرضِ، وأرواحُنا كانتْ رقابًا ممدودةً إلى السَّماءِ، لمْ تكنْ السماءُ بعيدةً عنّا، كانتْ أرضَنا الثّانيةَ ومرتعَنا، كانتْ كلُّ كلمةٍ حكايةً، كانتْ الكلماتُ وحدَها كفيلةً أنْ تكونَ معراجَنا نحوَ السّماءِ، نمدُّ إليها أيديَنا وكلماتِنا، نغمضُ أعينَنا ونروحُ نركضُ في إرجائها وحدَنا حينًا، وحينًا بصحبةِ الملائكةِ.

كانَ أبي يصعدُ كلَّ صباحٍ إلى السَّماءِ، حين سألتْ جدَّتي أمّي عنْ أبي قالتْ لها:

- تسهَّلْ يدوِّرْ الرِّزقْ، إدعي لي يا يُمَّه، اليومينْ هذي ما هو لاقي شُغُلْ.

- يا بنيتي الرِّزقْ اللي مكتوبْ له يجي لهْ، وربّي يقولْ رزقُكمْ في السَّما.

باتتْ الحلوى التي يُحضِرُها لي أبي إذا عادَ من عملِه

مساءً حلوى من السَّماءِ، ولمْ تكنْ السَّماءُ بعيدةً عنَّا، كانتْ قريبةً قربَ دكَّان عمْ علي أحمد الذي رأيتُ والدي يشتري لي منه الحلوى ذاتَ مرَّةٍ، وحينَ ينسى والدي أنْ يشتريَ لي شيئًا أعرفُ أنَّه لم يصعدْ إلى السَّماءِ ذلكَ اليومَ.

حينَ قالتْ لي جدَّتي إنَّنا كنَّا عندَ الله قبلَ أنْ نولدَ وسنعودُ إلى الله بعدَ أنْ نموتَ تيقَّنتُ أنَّ بيتَنا الأوَّل، والذي كنتُ أحاولُ أنْ أتذكَّره ولا أستطيعُ، كانَ في السَّماءِ:

- طيِّبْ كيفْ نزلْنا من السَّما يا جَدَّة؟

ولا تجيبُ جدَّتي، تشاغلُني بحكايةٍ من حكاياتِها وتتركني معلَّقًا بحيرةِ السُّؤالِ، وحينَ عرفتُ كيفَ هبطْنا من السَّماءِ قدتُ أبي خارجَ البيتِ ذاتَ مساءٍ، أشرتُ إلى وسطِ السَّماءِ:

- أبويا، جِنّا كنّا هنا، وبعدينْ زحفْنا زحفْنا زحفْنا حتّى وصلْنا هناكْ.

وهبطتُ بإصبعي، كأنَّما كنتُ أتتبَّعُ طريقًا أراهُ محفورًا في السَّماءِ، مشيرًا إلى الأفقِ حيثُ تلامسُ حافةُ السَّماءِ حدودَ الأرضِ غيرَ بعيدٍ عن بيتِنا:

- وبعدينْ مشينا مشينا مشينا وجينا هنا.

وكما كانتْ الكلماتُ سلالَمنا نعرجُ بها إلى السّماءِ كانتْ أوتادَنا التي تثبِّتْنا على الأرضِ، تقيمُ بينَنا وبينَها صلةَ وصلٍ، تدنينا منها وتدنيها منّا، تبدو معها الأرضُ امرأةً تصغي لما يقالَ فإذا سمعتْ تحدَّثتْ بما سمعتْ وأشاعتْ ما يقالُ.

تسمعُ جدَّتي خبرًا مريبًا، فاجعةً أو فضيحةً، تضربُ بيدِها الأرضَ، ثالثَتُهم التي لا تغيبُ عن مجلسِها مع أمّي، كأنّما تنبهُها لتوصيَها:

- صُمّي يا أرض.

ثمَّ تلتفتُ لابنتِها:

- لا يسمعْ أحدْ منِّكْ هذي القصَّةْ، خلّي عبادْ اللهْ تحتْ سترْ اللهْ.

تتكتَّمُ أمّي على السرْ، وتصمُّ الأرضُ أذنيها فلا تسمعُ ما يقالُ ولا تتحدَّثُ إذا سمعتْ.

والقمرُ إذا ما استدارَ بدرًا كانَ شاهدًا على النَّاسِ وما يفعلونْ، يحملُ وصاياهم حينَ يوصونَه، وينتقمُ لهم ممَّنْ يجني عليهم:

- ليلةْ طعنُهْ بالخنجرْ طاحْ الأرضْ، نظرْ وشافْ

القمرْ في السَّما، رفعْ إصباعَهْ وصرخْ: إشهدْ عليهْ يا قمرْ أربعْطعْشْ، ماتْ وما أحدْ عرفْ منْ اللي قتَلُهْ، بسْ اللي قَتلُهْ ما تِجي ليلةْ اربعْطعْشْ من كلْ شهرْ ويطلعْ القمرْ إلا تِنقلبْ حالُهْ ويصيبُه جنانْ من طلوعْ القمرْ إلينْ غيابُهْ، ومن كُثُرْ ما كانْ يجرا لهْ راحْ للقاضي واعترفْ: أنا قتلتُهْ وقمرْ اربعْطعْشْ شاهدْ عليّا.

كانَ كلُّ شيءٍ منْ حولِنا مسكونًا بشيءٍ، لكلِّ شيءٌ ظاهرٌ نراهُ وباطنٌ لا نراه، وكما نعرفُ الظّاهرَ ينبغي علينا معرفةَ الباطنِ ومعرفةِ التَّعاملِ معه، كلُّ زاويةٍ في البيتِ مسكونةٌ بروحٍ، وعتبةُ البيتِ تبدو مأوى محبَّبًا للجنِّ:

- لا تجلسْ على العتبةْ.

تنصحُ الأمّهاتُ أطفالَهنَّ، كأنّما لا يردْنَ أنْ ينازعَ هؤلاءِ الأطفالَ الجنَّ مجالسَهم فينالهم منها ما قد ينالُهم، وإذا ما عبرَ أحدٌ عتبةَ البابِ اتّخذَ من اسمِ الله حصنًا له، يتخطّى بها رقابَ الجنِّ آمنًا، فلا يزعجُ منها نائمًا ولا ينالُه أذى منها لو زلَّتْ قدمُه فدهسَ على طرفِ جنّيٍ يسندُ ظهرَه إلى الجدارِ ويمدُّ رجليهِ على العتبةِ.

البسْملةُ سيِّدةِ الكلماتِ، فاتحةُ الأكلِ والشُّرْبِ، حروفُها كانتْ تحرسُنا حينَ ننامُ وتحمينا حينَ نستيقظُ،

كلماتُها ملاذُنا إذا داهمَنا الخوفُ، البسْمَلةُ سيِّدةُ الكلماتِ، والتعاويذُ قبيلتُها نقيمُها سدًّا بيننَا وبينَ عالمٍ خفيٍّ يتربَّصُ بنا في كلِّ ما حولَنا.

نتحصَّنُ من ثيابِنا الجديدةِ حينَ نلبسُها بالكلماتِ، ينسدلُ الثَّوبُ وتنسدلُ معه الرقيةُ:

- أبليكْ وما تبليني، ويجعلْ خيوطَكْ عدَدْ عمري وسنيني..

كأنَّما تلكَ الثِّيابُ تنازعَنا أعمارَنا، تراهنُ أنْ نبلى قبلَ أنْ يبلى جديدُها فنستعينُ عليها من الرَّقى بما يكفينا الشرَّ الكامنَ فيها، ويدرأُ عنّا بطرفٍ خفيٍّ عينًا تستدرجُها الثيابُ الجديدةُ نسقطُ صرعى لها، كلَّما لبستُ ثوبًا جديدًا رقتْني امّي، ورحتُ أحدقُ في خيوطِه لعلّي أعرفُ عددًا لها فأعرفُ كم سنةً سوفَ يكونُ نصيبي من العمرِ.

وكما نستعيذُ بالكلماتِ فإنَّنا كنّا نعوذُ باللهِ منها، كما للكلماتِ ملائكةٌ تنصرُنا حينَ لا نصيرَ لنا فللكَلماتِ شياطينُ تتربَّص بنا، تتصيَّدُ منّا زلةَ لسانٍ فتنقضُّ علينا، لم تكنْ الكلماتُ كلُّها رقى تدفعُ عنّا الأذى، هناكَ كلماتٌ كمائنُ تترصَّدُنا، كلماتٌ مصائدُ، كأنَّما حياتُنا معلَّقةٌ بحبلٍ من الكلماتِ، كلماتٌ أطواقُ نجاةٍ وكلماتٌ حبالُ مشانقَ،

الكلماتُ خيرٌ وشرٌّ، نورٌ وظلامٌ، أرضٌ وسماءٌ، نلوذُ بعنايةِ بعضِها ونستعيذُ من الشرِّ الكامنِ في بعضِها الآخرِ.

تستعيذُ جدَّتي بالله من كلمةٍ متخفِّيةٍ تقولُها ولا تلقي لها بالًا كما تستعيذُ منَ جنِّيٍّ يتربَّصُ بها وعينٍ تترصَّدُها:

- الله يعيذَنا من كَلْمةْ وحفاها والدّنيا وبلواها.

- ايشْ يعني حفاها يا جَدَّةْ؟

- عواقبْها يا وليدي.

بتُّ أخشى عواقبَ الكلماتِ، أرتابُ فيها، ثمَّةَ ما هو مخفيٌّ فيها، غائبٌ عن أبصارِنا، لا ندركُه، وليسَ لنا وعلينا إلّا أنْ ننتظرَ، ننجو من شرٍ فنبحثُ عن كلمةٍ قلناها فأنجتْنا منه، ونقعُ في شرٍّ فنفتشُ عن كلمةٍ قلناها فقادتْنا إليهِ أو قادتْهُ إلينا.

بـتُّ أؤثـرُ أنْ أبقـى وحيـدًا مـا استطعتُ، غريبًـا عُـدتُ عـن عـالمٍ لم يعـدْ يؤمـنُ بالكلماتِ، عـالمٍ لا يـرى الكلماتِ تطيرُ كالفراشـاتِ سـاعةَ الغـروبِ، وتعـويَ كالذّئـابِ إذا انتصـفَ الليـلُ، وترقـصُ عاريـاتٍ كالصبايا عنـد نبـعِ الماءِ.

وحيدًا أستعيدُ طفولتي، قرَّبتني تلكَ الخطراتُ منها، تشـابهَ ذلـكَ الشَّـيخُ الـذي لمْ يعـدْ يعـرفُ كـمْ بلـغَ مـن العمرِ وذلـك الطِّفـلُ الـذي كانَ يعـدُّ سـنواتِ عمـرِه عـلى أصابـعِ يديـهِ ثـمّ يخطـئُ في الحسـابِ فيعـودُ يعدُّهـا ثانيـةً، أسـتعيدُها كأنَّـما حدَثـتْ أمـسِ، ولمْ تكـنْ تلـكَ الخطـراتُ التـي باتـتْ تـراودُني في شـيخوختي سـوى امتـدادٍ لعـالمِ الطُّفولـةِ الـذي عشـتُه أو عيّشـتْني فيـه الحكايـاتُ.

إحسـاسٌ كبـيرٌ بالرِّضـا يمـلأُ نفسي بـها أسـتعيدُ، ولم تكـنْ تلـكَ الكوابيـسُ التـي تنتابُنـي قـادرةً عـلى أنْ تنـزعَ مـنْ قلبـي هـذا الإحسـاسَ بالرِّضـا، أنهـضُ مـن نومـي صباحًـا مملـوءًا بالغبطـةِ كتلـك التـي شـعرتُ بهـا ذاتَ صبـاحٍ:

- أمّي أنا حِلِمتْ بالجنَّةْ.

- اللهْ يجعلْك من أهلَها، قولْ لي ايشْ شُفت؟

- أرضْ كبيرةْ، زيْ البرَحَةْ اللي ورا بيتّنا ومبلولةْ بالمطرْ

- يا سلامْ، وفيها شجرْ وفواكهْ وخضرواتْ؟

- لا، ما فيها شيْ، بسْ أرض طينْ ومرشوشةْ بالمطرْ، وفاضيةْ ما فيها أحدْ.

تقلّبُ كفَّيها تعجُّبًا:

- ما فيها أحدْ؟ والله عجيبةْ يا وليدي، جنَّة بلا ناسْ ما تنداسْ.

ولمْ أحلمْ بالجنَّة بعدَ ذلكَ، مرَّتْ سنواتٌ وأنا أستغربُ من تعجُّبِها أنْ تكونَ الجنَّةُ خاليةً من النّاسِ ولا أشجارَ فيها، ثمّ مرَّ عمري كلُّه وأنا أحاولُ أنْ أفهمَ كيفَ كانتْ تلكَ الأرضُ المطورةُ التي لا ناسَ فيها ولا شجرَ ولا فاكهةَ هي جنَّتي في الحلمِ، أغمضُ عينيَّ، استعيدُ جنَّتي، أرضًا ممطورةً لا يشاركُني فيها أحدٌ، وللطينِ فيها رائحةُ الوعدِ.

كنتُ أستعينُ بوجودِ أحدٍ حولي لكي أبقى على مسافةٍ من نفسي، كي يحولَ من معي بيني وبيني، كي أبقى في منجاةٍ ممّا كانَ ينتابُني من شعورٍ بتمزُّقي بينَ أماكنَ عشتُ فيها وأخرى لم أرَها قط، بينَ رجالٍ تقاسمتهم أحقابٌ من زمنٍ موغلٍ في القِدَمِ، مشتّتًا بينَ أحداثٍ لا أعرفُ كيفَ بدأتْ ولا كيفَ انتهتْ.

كنتُ أستعينُ بمنْ حولي لكي أبقى متماسكًا، أصواتُهم حينَ يتحدَّثون، أجسادُهم حينَ يتحرَّكون كانتْ طوقَ نجاةٍ لي، كأنَّهم يتوسَّطون بيني وبينَ أوهامي وأحلامي وخيالاتي، يضعونَني على أرضٍ صلبةٍ من الواقعِ الصَّلبِ، أعرفُهم فأعرفُ نفسي، كانتْ المسافةُ بيني وبينَهم هي البرهانُ الوحيدُ على أنَّني أنا هو أنا، ولستُ كلَّ أولئكَ الذينَ يمشونَ في دمي، يأكلونَ ويشربونَ وينامونَ في شراييني، أولئكَ الذينَ جعلوني مصطرعًا لحياتِهم وموتِهم، سعادتِهم وشقائهم، فقرِهم وغناهم، شدَّتِهم ولينِهم..

غيرَ أنّي بتُّ بعدَ ذلكَ أوثرُ أنْ أبقى وحيدًا ما استطعتُ، تلبَّستْني الأماكنُ والرِّجالُ والأحداثُ فلمْ أعدْ أستطيعُ فكاكًا منْ كلِّ ما يتلبسُني، لم يعدْ منْ حولي قادرينَ على استخلاصي منها، بتُّ أشعرُ أنَّهم يقفون بيني وبيني، يحولونَ بيني وبين ما غدا بعضي، ما غدوت بعضَه، كأنَّما هم يمزِّقونني إرَبًا، كانوا يعيدونَ لي ذاتي التي يرونَها لي والتي كنتُ أراها حين أُفيقُ ذاتي، غدوا يشتِّتونَ الذَّاتَ التي استقرتْ لي، تلك الذاتُ التي وُلِدتْ وحيدةً ونَمَتْ بعدَ ذلكَ، تراكمَتْ وتكاثَرتْ، لم تَعُدْ وحدَها كما وُلِدَتْ، غدتْ قبيلةً من الرِّجالِ، بلْ ومن النِّساءِ كذلكَ، أُمرِّرُ كفِّي على خدِّي فلا أخطئُ آثارَ جدريٍّ قديمٍ

تركَـتْ خالتـي قروحَـه تلمعُ عـلى خـدّي ورحلَـتْ، وأحمـلُ جثَّـةَ طفـلي الرَّضيـعِ مضرَّجـةً بالـدَّمِ، طفـلي الـذي لمْ أغفـرْ قـط لنفسي مصرعَـه حين تعثَّـرتُ فسـقطَ مـن يـدي، نزعـتُ حجرًا انغرسَ في الطَّبقـةِ الرَّقيقـةِ مـن جمجمتِـه ورحـتُ أعـدو أبحـثُ عـن خرقـةٍ ألـفُّ بهـا رأسَـه.

بتُّ أؤثـرُ أنْ أبقـى وحيدًا مـا استطعتُ، وحينَ اسـتفحلَ بِي الأمـرُ، ولم يعـودوا يتركونَنـي لمـا أنسـتُ إليـهِ مـنْ وِحـدةٍ، بـتُّ أراهـم، أولئكَ الذيـن يحيطـونَ بي مـن أبنائـي وأحفـادي، امتـدادًا لي، مرايـاي التـي أرى نفسـي فيهـا، كأنّي أصغـي لنفسـي حينَ يتحدَّثـون، وأراني، كلَّـما فتحـتُ عينـيّ ورأيتُهـم يستديرونَ حـولي، أستديرُ حـولَ نفسي، لمْ أعـدْ أميِّزُ أسـماءَهم ولا أسـتبينُ ملامحَهـم، وجهـي وحـدَه كانَ يمـلأُ المـكانَ، وصـوتي وحـدَه يمزِّقُ الصّمـتَ، والجـدرانُ كلُّهـا أصبحـتْ مرايـا، وأنـا أتقلَّـبُ في الأعـمارِ.

وحيـدًا، أنـا جنَّتـي عـلى الأرضِ، تلـك التـي رأيتُهـا في حلمـي طفـلًا، لا أحـدَ فيهـا سـوايَ، أنـا شـجرُها وطيرُهـا، عشـبُها وأشـجارُها، أنـا الوحـشُ الشَّـاردُ في أرجائهـا وأفاعـي الفـردوسِ أنـا، أنـا ثراهـا وماؤهـا المرشـوشُ، أنـا رائحـةُ طينِهـا، حيـاةُ الأرضِ أنـا وموتُهـا.

أعـدو في جنَّتـي مـا اسـتطعتُ، وحـين ينالُنـي التَّعـبُ

استلقي على الطِّينِ، أطوِّحُ بقدميَّ في الهواءِ وأرمقُ السَّماءَ، قريبةً منّي، لو رفعتُ يدي قليلًا للمسْتُ زجاجَها، طرقتُ عليه بأناملي، ينفتحُ لي بابُها، ألوِّحُ بيديَّ للواقفين وراءَ البابِ:

- ها أنا عدْتُ.

أنهضُ، أروح أعدو ثانية على طينِ جنتي، وحيدًا إلا منّي، أبلغ أقاصيَها، وحينَ أكرُّ راجعًا، أرى العشبَ ينبتُ تحتَ قدميَّ، والأشجارَ تنتصبُ حولي، والطيرَ تحلّقُ فوقَ رأسي، أراهم وقدْ تكاثروا حولي ولمْ تعدْ الجنَّةُ جنّتي وحدي، ولمْ أعدْ وحدي أعدو في أرجائها، شغلوني عنها، شغلوني عنّي.

شكوتُ إليهِ ذاتَ ليلةٍ ما انتهيتُ إليهِ منْ حالٍ لم أعدْ فيها حيًّا يأنسُ بالأحياءِ ولا ميّتًا يستكينُ إلى الموتى، أسندتُ ركبتي إلى رأسِه وبكيتُ:

- تِعِبتْ..تِعِبتْ، والله تِعِبتْ يا أبويا.

- أتعبتَ نفسَك، قلقُك انتهى بكَ إلى ما أنتَ فيهِ.

أصغيتُ إلى صوتِه، كأنّما كانَ يقرأ لي من كتابٍ لم أقرأه من قبلُ، ولم يكتبْهُ أحدٌ:

- خبأتُهم لكَ تحتَ جلدِك فأبيتَ إلّا أنْ تفركَ هذا الجلدَ حتّى...

- بلْ أتعبوني، لا يتركونَني لنفسي فأرتاحُ ولا يأخذونَني إليهم فاستريحُ.

- لا يستطيعونَ أخذَكَ وقد تقاسَمتْك أقوامٌ سواهم، لمْ تَعُدْ خالصًا لهم ولا لقومٍ غيرهم، يعرفونَ منكَ وجهًا، يدنونَ منكَ، فإذا استبانوا منكَ ما لا يعرفونَ استرابوا ونأوا عنكَ.

كأنّني سمعتُه يقولُ ذلكَ، كأنّني سمعتُني، نزعتُ نفسي من نفسي، هتفتُ به مسترحِمًا:

- قلْ لهمْ يَدعوني وشأني.

- ليسَ لي عليهم أمرٌ ولا نهيٌ.

- ولكنَّكَ أنتَ منْ أحضرَهم لي.

- كانوا أمانةً حُمِّلتُها فحملتُها إليك، فاصبرْ عليهم، وتذكَّرْ أنّكَ لولاهم ما تعلَّمتَ الصَّبرَ..

وأضافَ وكأنَّما كانَ يعرفُ ما كنتُ أفكِّرُ فيه:

- أحضرتُهم لكَ، قدتُهم من زمانِهم إلى زمانِك كي يعلموكَ كيفَ تصبرُ على زمانِك.

- لم يَعُدْ عندي صبرٌ على الصَّبرِ يا أبي، لم يَعُدْ في الدُّنيا ما أحتملُ مرارةَ الصَّبرِ من أجلِهْ.

خبأتُ دمعي، فوشتْ بي زفرةٌ شعرتُ أنّها الأخيرةُ قبلَ طلوعِ الرُّوحِ، وضعَ يدَه على رأسي، قلتُ وأنا أغالبُ عبرتي:

- قلْ لهمْ يرحلونَ عني.

- قلتُ لكَ ليسَ لي أمرٌ عليهم ولا نهيٌ، لا تَضِقْ بهم فطالما كانوا جدارَكَ الذي سندتَ إليهِ ظهرَكَ فلم تخاتِلْكَ من وراءِ ذلكَ الجدارِ طعنةُ غدرٍ.

كأنِّي سمعتُه يقولُ ذلكَ لي، ولمْ أجرؤْ أنْ أقولَ له إنَّهم كانوا الجدارَ الذي طالما وقفَ بيني وبينَ ما يحيطُ بي، كانوا الجبلَ الذي يجثمُ في ساحةِ مدينةٍ لا تعرفُ الجبالَ، كانوا السَّيلَ الذي كلَّما طرقتُ طرقاتِ المدينةِ حالَ بيني وبينَ ميادينِها، كانوا الصَّوتَ الذي كلَّما ألفتُ قومًا هتفَ بي :ليسوا منك ولستَ منهم.

- كانوا الجدارَ الذي كلَّما قَصرتْ قامتُك اعتليتَه فلا تعلوكَ قامةٌ.

كأني سمعتُه يقولُ ذلكَ لي، ولمْ اجرؤْ أنْ أقولَ له إنَّ كلَّ قامةٍ ليستْ قامتي هي قامةٌ زائفةٌ، وكأنَّما كانَ يقرأُ ما يجولُ في خاطري، سمعتُه كأنَّه يقولُ:

- همْ قامتُك أنتَ حينَ تعرفُ من أنتَ، حينَ تعلمُ أنَّكَ لو طأطأتَ قامتَكَ تكونُ قد خُنتَ من لم يحنِ قامتَه قط ولم يستسلمْ.

قلتُ له وقد أعادتْ كلماتُه لي شيئًا من رباطةِ الجأشِ:

- خبأتُهم لي يا أبي في الحكاياتِ، لمْ أكنْ أعرفُ ذلكَ، كنتُ أتوهَّمُ تلكَ الحكاياتِ ألعابًا ألعبُ بها فلعبتْ بي تلكَ الحكاياتُ.

- كلماتُ الحكاياتِ يا ولدي ليستْ كلماتٍ، ليستْ

مجردَ كلماتٍ، ما كنتَ تسمعُه إنَّما هم رجالٌ مخبوؤنَ في الحروفِ، نتذكَّرُهم ونذكرُهم فيحضرونَ، فلا تضقْ ذرعًا بهم، كانوا همْ خندقَك في الحربِ وحديقتُك في السِّلمِ، كانوا أرضَك التي تُقِلُّكَ وسماءَكَ التي تُظِلُّكَ.

- كانوا منفايَ ووطني.

- لو لم يكونوا لتقاسمتْك الأقوامُ فلا يعودُ أحدٌ يعرفُ من أنتَ، ولا تعودُ أنتَ تعرفُ منْ أنتَ كذلكَ.

- وهلْ تراني أعرفُ يا أبي بعدَ هذا العمرِ منْ أنا؟..

سلَّ ركبتَه منْ تحتِ رأسي، ترامى إلى أذني ضجيجُ رجالٍ يتجادلونَ، ولمحتُ نارًا تتذاءبُ في الموقدِ ودلالًا مصفوفةً وصوتَ الرِّيحِ، جبالًا شاهقةً ومنْ على قمَّةِ كلِّ جبلٍ كانتْ تشرقُ على الأرضِ شمسٌ.

تلفَّتُّ حولي فلمْ أرَ أحدًا، ناديتُ ولم يجبْني أحدٌ، فتحتْ بابَ الغرفةِ ابنتي، سألتْني إن كنتُ أريدُ شيئًا، ولم أجبْها.

- سمعْتُكَ تنادي.

- لا، ما ناديتْ

ومن خلفَ البابِ سمعتُهم يتهامسونَ:

- قلنا لِكْ من زمانْ جدّي صارْ يكلِّمْ نفسُهْ وما انتِ راضيةْ تصدِّقينْ.

- عارفةْ، بسْ عيبْ تتكلَّمونْ عنْ جدّكمْ كذا، ويا ويلكمْ لو قُلتو لأحدْ.

شعرتُ أنّي أقتربُ من النّهايةِ التي انتهى عابدٌ إليها، متأخرةً ربما تكونُ، ولكنَّها نهايةُ الطّريقِ الذي سلكناه معًا، استعجلَ وتريَّثتُ، كانَ أكثرَ فطنةً حينَ ذهبَ لعالمِ الغيبِ الذي كانَ يتراءى له خلفَ الأحرفِ والكلماتِ، دعتْهُ شمسُ المعارفِ إلى عالمِها السرمديِّ، وبقيتُ وحدي أدافعُ بيديَّ سقفَ المعارفِ الذي كلَّما رفعتُ رأسي رأيتُه خفيضًا كسماءٍ باردةٍ مترهِّلةٍ.

ساءتْ حالةُ عابدٍ، أصبحَ رهينَ أوهامِه وخيالاتِه، يحدِّثُ أهلَه عن أحداثٍ ووقائعَ شاركَ فيها، ورجالِ التقى بهم، يبتهجُ سرورًا بأعمالِ خيرٍ وفَّقَه اللهُ للقيامِ بها، ويبكي بحرقةٍ على آثامِ أغواهُ الشَّيطانُ فارتكبَها، يوصي بكتبِه التي فرغَ من كتابتِها، ويطلبُ منهم الدُّعاءَ له بأن يفرغَ من الكتابِ الذي شرعَ في تأليفِه، جاراهُ أبواهُ حينًا فيما يقولُ، وحينَ شعرا أنَّ ذلك يغريهِ بالاستغراقِ في مزيدٍ من التَّوهُّمِ أخذا يعارضانِه ويصحِّحانِ له ما يقولُ، وكانَ ذلك يثيرُ غضبَه:

– إنتو ليهْ تبغونْ تطلّعوني كذّابْ في كلْ شيْ أقولُهْ لكمْ؟

– يا حبيبي، واللهْ نعرفْ إنُّه إنتَ ما انتَ كذَّاب، بسْ اللي تقولُهْ ما حَصَل.

تحاولُ أمُّه إعادةَ الهدوءِ إليهِ فينتفضُ غضبًا:

- خلاصْ أجلْ صدَّقتو إنّي مجنونْ، انبسطوا لَمّا الناسْ تعرفْ إنّه ولدكمْ تجنَّنْ.

حينَ زرتُه أصرَّ على أنْ يجلسَ والدُه معنا:

- شوفْ راحْ أسألْ سعيدْ قدّامكْ منْ شانْ تعرفْ إني مو كذّابْ ولا مجنونْ.

قالَ لوالدِه والتفتَ نحوي يسألُني:

- تفتِكِرْ حمزةْ ؟

- حمزةْ البهلوانْ اللي اعطيتْني قصّتُه؟

- لا ..لا .حمزةْ الاستاذْ اللي رمى كتابي من الشُّبّاكْ.

- إيوا، أفتكرُهْ، إيشْ بهْ؟

- مو أنا قتلتُهْ؟

- إنتَ قتلتُهْ؟

- إيوا، قلتْ لكْ يومْ ما رمى كتابي واللهْ لو بيدّي كانْ أقتلُهْ.

- صحْ، إنتَ قلتْ لي كذا، بسْ ما قتلتُهْ.

– تبغى تِطَلِّعني كذَّابْ يعني؟ إنتَ كنتْ معايا، وإنتَ عارفْ إنّي قتلتُهْ.

– بسْ أنا شُفتْ الاستاذْ حمزةْ أمسْ في المدرسةْ.

هاجَ عابدٌ غضبًا، طلبَ منّي والدُه أنْ أغادرَ الحجرةَ وأنْ لا أخبرَ أحدًا بما سمعتُ، غادرتُ وكانَ صوتُ عابدٍ يتبعُني، يصرخُ غاضبًا:

– قتلتُهْ وما ني خايفْ من أحدْ، وخليهْ يقولْ لكلْ النّاسْ إنّي قتلتُه، اللي يرمي كتابي يستاهلْ إنّهْ ينقِتِلْ..

لمْ أعدْ قادرًا على زيارةِ عابدٍ، حالَ أهلُه بيني وبينَه، قالوا إنَّ الشَّيخَ الذي يتولَّى علاجَه طلبَ منهم ألّا يراهُ أحدٌ ولا يرى أحدًا، ولمْ أفهمْ لماذا يطلبُ منهم الشَّيخُ ذلكَ، أقسمَتْ أمُّه:

– واللهْ يا ولدي حتَّى أنا ما رِضي إنّي أدخلْ عليهْ ولا أشوفُهْ، أحطْ لهْ الأكلْ والمُويَةْ منْ تحتْ البابْ، ما سمحْ لي حتَّى إنّي أكلِّمُهْ من ورا البابْ وأطّمّنْ عليهْ، واللهْ يتقطَّعْ قلبي وأنا أسمعُهْ يناديني: يُمَّهْ...يُمَّهْ..، وما اقدرْ أردْ عليهْ.

كانتْ تبكي وكانَ أبوه يطمئنُها:

– شِدّةْ وتزولْ إنْ شا اللهْ يا أمْ عابدْ.

ولمْ تَـزُلْ تلـكَ الشِّـدةُ، عثـروا عـلى عابـدٍ ميِّتًـا في تلـكَ الغرفـةِ بعـدَ أيَّـامٍ، لم يعـودوا يسـمعونَ صوتَـه وهـو يناديهـم في الصَّباحِ ولا صَوتَ بكائهِ حينَ يـأتي المسـاءُ، فتحـوا بـابَ الغرفـةِ فوجـدوه غارقًـا في الـدمِ ممـدَّدًا قـربَ العتبـةِ، ممسِكًا مسبحةً في يدٍ وفي اليدِ الأخرى ورقـةٌ عليهـا أحـرفٌ مكتوبـةٌ بالـدّمِ وجـرحٌ غائـرٌ في سـاعدِه الأيمـنِ، قالـوا قتلتْـه الجـنُّ، وقالـوا نـزفَ دمًـا حتّـى مـاتَ، وقالـوا لم يكـنْ يـأكلُ الطّعـامَ الـذي كانـتْ أمُّـه تضعُـه لـه مـنْ تحت البـابِ فـماتَ جوعًـا.

لمْ يَحُلْ المـوتُ بينـي وبـينَ عابـدٍ، كنـتُ أزورُه في مرضِـه وأصبـحَ يـزورُني بعـدَ موتِـهِ، آنـسُ إليـهِ ميِّتًـا كـما كنـتُ آنـسُ إليـه حيًّـا، بقـي عابـدٌ يـزورُني في طفولتـي، أراهُ في المنـامِ بـينَ الفينـةِ والفينـةِ، ولمْ يكـنْ يـأتي وحـدَه، كانَ يـأتي مصحوبًـا بواحـدٍ مـن الذيـن كانَ يقـرأُ لهـم والتقـى بهـم ليلـةَ أنْ حملتْـه الجـنُّ إلى تلـكِ السّـاحةِ:

- عارفْ هذا مينْ؟

وأشارَ إلى رجلٍ كثيف الشّنبِ يقفُ إلى جوارِهِ:

- لا.

- هذا المنفلوطي.

- أوه اللي يكتبْ قصصْ مرَّةْ حزينةْ تخلّي اللي يقراها يبكي.

وأشارَ مرّةً إلى رجلٍ على خدِّه شامةٌ كبيرةٌ جاءَ معه:

- عارفْ هذا مينْ؟

- إيوا، نجيبْ محفوظْ.

- بالقوَّة جا معايا، كانْ زعلانْ منّي.

- ليهْ زعلانْ منَّكْ؟

- مو قلتْ لكْ إنّي نسيتْ اسمُهْ لمّا سألوني؟

- إيوا، صحْ، قلتْ لي.

بتُّ أنتظرُ زياراتِه، ليسَ شوقًا إليهِ فحسبُ بل شوقًا لأولئكَ الذين كانَ يُحضِرُهمْ معه، أولئكَ الذين أحضرَ لي كتبَهم منْ قبلُ وقضيتُ الليلَ منحنيًا على ضوءِ فانوسٍ أقرأُها، وإذا ما سألتْني أمّي عمّا إذا كنتُ أقرأُ في كتبِ المدرسةِ أخبرتُها أنَّها ليستْ من كتبِ المدرسةِ ولكنَّ المعلمَ طلبَ منّا قراءتَها، ولم يكنْ من طلبَ منّي قراءتَها غير عابدٍ، كُلَّما فرغتُ من كتابٍ أحضرَ لي كتابًا

- عندكْ غيرُهْ؟

- عندي كثيرْ، بسْ إنتَ إقرا هذا في الأوَّل.

فإذا سألتُه من أينَ لهُ بكلِّ هذه الكتبِ لم يجبْني، ظلَّ ذلك سرَّه المخبوءَ الذي لا زلتُ كلَّما تذكرتُه تعجَّبتُ منه.

قالَ لي ذاتَ زيارةٍ من زياراتِه بعدَ موتِه:

- المرّةْ الجايَّةْ لكْ عندي مفاجأةْ كبيرةْ، عارفْ مينْ راحْ أجيبْ معايا؟

- مينْ؟

- عنترْ

- عنترْ بن شدّادْ؟ مِنْ جِدْ؟

- مِن جِدْ، كانْ يبغى يجي معايا هذي المرَّةْ بسْ انشغلْ.

- راحْ يِقاتِلْ؟

- لا ..راحْ يشوفْ عبلةْ.

ولمْ يحضِرْ لي معه عنترةَ في المرَّةِ التَّاليةِ، كانتْ بصحبتِه فتاةٌ جميلةٌ، كانتْ تلبسُ رداءً أبيضَ اللونِ وعلى وجهِها غطاءٌ رقيقٌ لا يخفي ملامحَها الفاتنةَ، هتفتُ بهِ:

- هذي مينْ؟

- حزّرْ.

- عبلةْ؟

- عبلة؟

ضحكَ وابتسمتْ تلكَ الفتاةُ فزادَ وجهُها جمالًا:

- عبلةْ؟ مجنون أنا أجيب عبلةْ؟ واللهْ كان عنترْ يقتلْني، ويمكنْ يقتلها لو جات معايا.

- كيف يقتلْكْ ؟ ما هو إنتَ خلاصْ ميِّتْ.

- إيوا يقتلْني، بسْ ما أموتْ.

- كيفْ يعني يقتلْكْ بسْ ما تموتْ ؟ ما فهمتْ.

- من شانْ أنا خلاصْ ميِّتْ.

يستغرقُ في الضَّحكِ، وتبتسمُ الفتاةُ التي كانتْ تقفُ وراءَه ثانيةً:

- بلاشي بَهْلَلَةْ، قولْ لي هذي مينْ؟

- هذي شهرزادْ.

- مينْ شهرزادْ؟

- ما تِفتِكرْ البنتْ اللي قلتْ لكْ إنّها تحكي للملكْ اللي كانْ يقتلْ البناتْ حكاياتْ فيها قِلَّةْ أدبْ؟

- إيوا افتكرتْها، افتكرتْها.

- خلاصْ، هذي هيَّ شهرزادْ، البنتْ اللي كانتْ تحكي الحكاياتْ للملكْ.

- طيِّبْ لو عِرِفْ الملكْ إنَّكْ جبتَها معاكْ يمكنْ يقتلْك، وكمانْ يقتلني

- لا، لا تخافْ، الملكْ ماتْ، وبعد ما ماتْ صارتْ شهرزادْ تحكي الحكاياتْ للنَّاسْ.

- يا حظَّكْ، تحكي لكْ حكاياتْ؟

- كلْ ليلةْ تحكي لي حكايةْ، صرتْ زيْ الملكْ

يستغرقُ ثانيةً في الضَّحكِ، يمسحُ عينيهِ بطرفِ عمامتِه:

- طيِّبْ تقدرْ تخلّيها تحكي لي حكايةْ؟

لمْ يجبْ عابدٌ، ولمْ تحكِ شهرزادُ، وكانَ صوتُ المؤذنِ يرتفعُ مؤذِنًا بطلوعِ الصّباحِ.

تباعدتْ زياراتُه، سألتُه ذاتَ مرَّةٍ عمّا إذا كانَ لا يزالُ يرى الجنَّ الذين كانوا يخرجونَ منْ ثقبٍ في الجدارِ، ضحكَ ثمَّ قالَ:

- صرْنا أصحابْ.

- مِنْ جِدْ؟

- شـوفْ، لَّمـا نمـوتْ نصيرْ ارواحْ، يعني إحنا والجنْ زيْ بعضْ .

- مِنْ جِدْ؟

- أنـا اقـولْ يمكـنْ الجـنْ يكونـونْ هـمْ النـاسْ اللي ماتـوا مـنْ زمـانْ.

- يعني إنتَ صرتْ جنّي؟

- لا ..أنـا مـا مـتْ مـنْ زمـانْ، أنـا لسَّـهْ روحْ إنسـانْ، النـاسْ لسَّـه تعرفْـني وتفتِكرْني، بعدينْ لّما يمرْ وقتْ طويـلْ وينسـونّي النـاسْ راحْ أصيرْ جنّـي.

يضحكُ، وانا أرتجفُ خوفًا:

- بسْ اللهْ يخلّيكْ إذا صرتْ جنّي لا عادْ تزورني.

- مـا دامْ إنـتَ مفتكـرني مـا راحْ أصيرْ جنّي، بـسْ يـا ويلـكْ لـو نسـيتْني، راحْ أصـير جنّـي وأجننْـكْ.

ضحكَ عابدٌ وعادَ يطمئنُني:

- لا تخافْ، عالمْ الارواحْ عالمْ مكشوفْ عنّه الحجابْ.

- كيفْ يعني؟

- ما أعرفْ أشرحْ لكْ، بسْ لّما تموتْ راحْ تعرفْ، راحْ تشوفْ اللي عمرَكْ ما شفتُهْ.

وانقطعتْ عنّي زياراتُ عابدٍ، تمنّيتُ أنْ أراهُ حينَ تقدَّمتُ في السِّنِّ لكي أخبرَه أنّني لم أحتجْ أنْ أموتَ كي أرى ما لمْ أكنْ أراهُ، أرى الموتى كما أرى الأحياءَ، أرى الموتى أحياءً يرزقونَ، أرى أجدادي الذين ماتوا قبلَ أنْ أولدَ، وأرى كلَّ أولئكَ الذينَ رآهمْ ليلةَ أنْ حملتْهُ الجنُّ لتلكَ الأرضِ البعيدةِ، صرتُ مثلَه أرى الجنَّ كذلكَ، من ثقبٍ في الجدارِ صرتُ أراهم يخرجونَ، أرواحُ أولئكَ الذين ماتوا ولمْ يعدْ أحدٌ يتذكّرُهم، كما قالَ لي عابدٌ، يحملونَني معهم حيثُ يشاءونَ حينًا، وحينًا آخرَ يجلسونَ على طرفِ فراشي يتحدّثونَ معي، وحين يدخلُ أحدٌ الغرفةَ كانوا يختفونَ سريعًا في ثقبِ الجدارِ.

يساورُني الشَّكُّ أحيانًا، ربَّما أكونُ قدْ متُّ دونَ أنْ أعرفَ، وكثيرًا ما أتساءلُ في حيرةٍ عمّا إذا كانَ الذين يموتونْ يعرفونَ أنَّهم قدْ ماتوا، وعمّا إذا كانوا يشاركونَنا الحزنَ عليهم، أو أنَّهم غسلوا أيديَهم من أحزانِنا كما نغسلُ أيديَنا بعدَ تناولِ الطَّعامِ وكما يمسحُ البدوُ أيديَهم في أطرافِ أرديتِهم وهمْ يردِّدونَ :اللهْ لا يغسلْ عنّا نعمتُهْ.

أعادتْني عودةُ عابدٍ إلى طفولتي حتّى ولو لمْ تكنْ

عودتُـه أكثـرَ مـن لمحـةٍ رأيتُـه فيهـا في المرآةِ، يحمـلُ حقيبتَـه، تلـكَ المحمَّلـةُ بالكتـبِ، والتـي كنـتُ أشـاركُهُ حملَهـا ونحـن في طريـقِ العـودةِ مـن المدرسـةِ، ولم أكـنْ أفعـلُ ذلـكَ مـن بـابِ مسـاعدتِه بقـدرِ مـا كنـتُ أشـعرُ بفـرحٍ أنْ احمـلَ حقيبـةً مملـوءةً بالكتـبِ.

أخلو لنفسي كثيرًا، أتحدَّثُ مع أولئكَ الذين يخطرونَ لي حينًا ومع نفسي حينًا آخرَ، ولم أكنْ معنيًّا بالتَّفريقِ بين الحالينِ، ربّما لمْ أكنْ قادرًا على التَّفريقِ بين الحالينِ، وأعجبُ من أولئكَ الذينَ يتوهَّمون أنَّ الذين يرونَهم يتحدَّثون مع أنفسِهم إنَّما يتحدَّثون مع أنفسِهم، يتهمونَهم بالخرفِ حينًا وحينًا آخرَ بالجنونِ، لايدركونَ أنَّهم إنَّما هم يتحدَّثونَ مع منْ يسكنونَهم، مع منْ باتوا يسكنونَ إليهم، يألفونَهم، ينادمونَهم بعدَ أنْ أنزلوهم منزلةَ أنفسِهم وغدا الحديثُ معهم حديثًا مع النفسِ.

بتُّ أشفقُ عليهم، أولئك البؤساءِ، الوحيدينَ إلّا من أنفسِهم الوحيدةِ، أشفقُ عليهم من وحدتِهم، عزلتِهم تلكَ التي تجعلُهم فقراءَ إلى منْ يحيطُ بهم، يحتاجونَهم كي يخرجوا من صمتِهم المطبقِ ويحركوا ألسنتَهم الراكدةَ، أشفقُ على أولئك الذين لا يرون من النَّاسِ إلّا من ينتصبُ أمامَهم كالجدارِ أو يستعلي عليهم كالسَّقفِ أو يتمدَّدُ تحتَ أقدامِهم كدعّاساتِ الأبوابِ أو أعشابِ الحدائقِ.

أشفقُ عليهم، ينظرونَ ولكنَّهم لا يبصرونَ، يسمعونَ ولكنَّهم لا ينصتونَ، ولو أنَّهم رزقوا شيئًا من البَصرِ والبصيرةِ لرأوا أولئكَ الذين ورثوهم وأولئكَ الذين

عرفوهم أشباحًا تلوحُ من السّقفِ وظلالًا تتحرَّكُ على الجدرانِ، ولو أنّهم أحسنوا الإصغاءَ لما فاتتْ أسماعَهم همساتُ من أباحوا لهم بأسرارِهم حينَ نزّلوهم منزلةَ أنفسِهم ذاتَ يومٍ، ولأصمّتْ آذانهم صرخاتُ من استغاثوا بهم ذاتَ حاجةٍ ولَم يستطيعوا أنْ يغيثوهم، ولأنصتوا طويلًا لحكاياتِ أمهاتِهم ووصايا آبائهم الذينَ حَملوهم إلى المقابرِ وحين ارتدّوا إلى منازلِهم عجزوا عن تبيُّنِ أنَّ حكاياتِ الأمهاتِ ووصايا الآباءِ تبقى حيةً لا تموتُ، أخشى عليهم منْ عقوقٍ لا يعرفونَ أنّهم يرتكبونَه حينَ يتنازعونَ على ما تركَه لهم آباؤهم من إرثٍ ويجهلونَ أو يتجاهلونَ أعظمَ ما تبقَّى لهم من أولئك الآباءِ فلا يلقونَ عليهم تحيةَ الصَّباحِ حينَ يصبحونَ ولا يستاذنونهم في شيءٍ مما يهمُّون بفعلِه.

أشفقُ عليهم حينَ لا يرون ما أرى، ولا يسمعونَ ما أسمعُ ولا يوفونَ بما أنا شديدُ الحرصِ على الوفاءِ به، أشفقُ عليهم وقد تركوا أباءَهم وأمهاتِهم، تركوا كلَّ من عرفوهم منفيينَ في عزلةِ الموتِ يتحدّثون ولا يسمعُهم أحدٌ، يتحرّكون ولا يراهم أحدٌ كذلك، لا يبصرُهم ولا يسمعُهم حتّى أولئكَ الذين كانوا لهم العيونَ التي بها يبصرونَ والآذانَ التي بها يسمعونَ.

لم أعدْ ألقي بالًا لهم، يتضاحكونَ عليَّ في السِّرِّ

وأضحكُ منهم في العلَنِ، أتحدَّث حين أشاءُ مع من أشاءُ، مع نفسي كما يتوهَّمون، مع نفسي حينَ يكونُ من أتحدَّثُ معهم بمقامِ النَّفْسِ، ولن أسمحَ لأوهامِ جيلٍ واحدٍ أو جيلين أنْ تحولَ بيني وبين حقيقةِ أنَّني وريثُ كلِّ تلك الأجيالِ التي سلَفَتْ، كلِّ أولئك الذين تركوا لي أعمارَهم أحياها بعدَهم ورحلوا، تركوا لي عيونَهم التي أرى بها ما لا تراه عينايَ وما لا تراه عيونُ الآخرينَ، آذانَهم التي تسمعُ دبيبَ النَّملِ على الصَّخرِ، تركوا لي أقدامَهم، كلَّما أنهكَ السَّيرُ قدميّ نبتَتْ لي قدمانِ من إرثِهم الذي تركوه لي، تركوا لي أكفَّ أيديهم التي نبتَ عليها الشَّعرُ وشابَ.

- واللهْ لو يَنْبُتْ الشَّعرْ في كفّي ويشيبْ...

كانَ ذلكَ قَسَمُ أبي الذي كنّا نعلمُ أنّه لنْ يحنثَ به.

قلَّبتُ كفّيَّ، مذْ كنتُ طفلًا وأنا أقلّبُ كفيَّ متسائلًا عمّا إذا كانَ سيبنتُ عليها ذاتَ يوم الشَّعرُ ويشيبُ، شابَ شعرُ جسمي كلُّه وتساقطَ أكثرُهُ ولم ينبتْ في كفَّيَّ شعرٌ ويشيبْ، ولم يحنثْ أبي بقَسَمٍ قط، كلُّ قَسَمٍ له كانَ يمينًا قَطْعيَّة تفني المالَ والذريَّة، لم يكن القسَمُ مجرَّدَ كلمةٍ تُقالُ، كان، لو حنث صاحبُه، فقرًا يترصَّدُ المالَ ووباء يترصَّدُ الأبناءَ والبناتِ، لا يبقى من المالِ شيئًا يسدُّ العوزَ، ولا من الأبناءِ من يترحَّمُ عليه بعدَ الموتِ.

كانَ القسَـمُ بـالله غايـةَ مـا يقيـمُ بـه المختلفـونَ حججَهـم ويوثِّقـون بـه أقوالَهـم:

- ما بعدْ الحِلفانْ باللهْ شيْ.

يرتـدُّ القسـمُ الـكاذبُ عـلى صاحبِـهِ فقـرًا وهـلاكًا، كانَ القسـمُ سيفًا، رصاصةً، وكانَ مـن يحنثُ بالقسَـمِ كمنْ يطلقُ النّـارَ عـلى نفسِـه، أو ينحني على ذبابةِ سيفِه فيختـرقُ صـدرَه ويخرجُ مـن ظهـرِه، كانَ القسَـمُ سيفًا كسيفِ عنترةَ الـذي كانَ يضـربُ بـه خصمَـه على عاتقِه فيخـرجُ يلمـعُ من علائقِه.

لم تثـرْ فيَّ تجـاربُ الحيـاةِ فزعًـا مثـلَ ذلـك الفـزعِ الـذي كانـتْ تثيـرُه فيَّ تلـكَ الضَّربـةُ، أُغمضُ عينـيَّ فيحضـرُ عنـترةُ وخصمُـه يتجالـدانِ بالسِّـيوفِ عنـدَ حافَّـةِ فـراشي، تسـبِقُ ضربـةُ عنـترةَ عـلى عاتـقِ خصمِـه، يضحـكُ سـاخرًا:

- أخطأتَ يا عنترةْ.

- اهتزّ ياملعونْ.

يـصرخُ عنترةُ ويهتزُّ الخصـمُ، ينشطرُ إلى نصفينِ يسقطانِ عـلى الأرضِ، يغمـدُ عنترةُ سيفَه بانتظـارِ خصـمٍ آخـرَ تـاركًا دمَ خصمِـه يسـيلُ رطبًـا دافئًـا عـلى حافـةِ فـراشي وشـطريهِ يحقّـانِ بي ذاتَ اليمـينِ وذاتَ الشِّـمالِ.

مضى العمرُ ولم ينبتْ على كفَي شَعرٌ، أدني كفِّي من أنفي، تفوحُ منها رائحةُ المسكِ والكافورِ والعنبرِ، لم تغادرْ كفِّي تلكَ الرائحةُ مذ أودعتُ أمّي اللحدَ، هتفَ بي رجلٌ من على حافَّةِ القبرِ:

- اكشفْ الكفنَ عنْ وجهِها.

كانوا قدْ أسدلوا على القبرِ غطاءً وبقيتُ وحيدًا معها، حللتُ عقدةَ الكفنِ المربوطةَ فوقَ الرأسِ، وكشفتُ الغطاءَ، لم أتبيَّنْ وجهَها، كانتْ موسَّدةً على جنبِها الأيمنِ، كما تعوَّدتْ أنْ تنامَ.

موسّدة على جنبِها الأيمن كانت، وكان وجهُها باتجاهِ القِبلة، كأنَّما كانتْ تتهيّأُ لصلاةٍ لا تنقضي إلى يوم البعثِ، حشرتُ كفّي بينَ وجهِها وجانبِ اللحدِ، تلمّستُ جبينَها وأنفَها، كانَ ذلكَ آخرَ العهدِ بها، تمنيتُ لو تركَ اللحدُ مسافةً لي لأطبعَ على جبينِها قبلتي الأخيرةَ، بقيتْ تلكَ القبلةُ معلقةً على شفاهي، وفي يدي بقيتْ تفوحُ رائحةُ الكافورِ والعنبرِ والمسكِ، كلّما افتقدتُها قبّلتُ كفّي، قبّلتُ تلكَ الرائحةَ، قلتُ لزوجتي عائشةَ ذاتَ يومٍ:

- يا ليتَهم يصنعونْ عطرْ مخلّطْ من الكافورْ والمِسكْ والعنبرْ.

– فيهْ عطرْ مِسكْ وعطرْ عنبرْ، واللي أعرفُهْ إنّهم يستعملونْ الكافورْ للعلاجْ وتطويلْ الشَّعَرْ.

– لا، أنا أبغى عطرْ مركّب ومخلّطْ من الكافورْ والعنبرْ والمسكْ.

– أيشْ معنى هذي الخلطةْ؟

– ريحةْ حنوطْ الموتى.

– أعوذْ باللهْ منْ تفكيرَكْ.

أرفعُ كفّي إلى أنفي، تفوحُ منها رائحةُ الحنوطِ، رائحةُ الحنطةِ كذلكَ، بينَ الحنوطِ والحنطةِ نسبٌ، خبزُنا في الحياة وعطرُنا بعد الموتِ، في كفّي تسكنُ رائحةُ الخبزِ الذي كانتْ تخبزُه أمّي أو أحضرُه ساخنًا من الفرنِ كلَّ صباح، في كفّي رائحةُ الطّينِ الذي طالما أغمضتُ عينيَّ ورحتُ أستنشقُ أرجَ ما يخبئُه من العشبِ، رائحةُ ملحِ البحرِ، بخورِ اللبانِ الذي كانتْ أمّي تطردُ به الجنَّ عند غروبِ الشّمسِ، دهنُ العودِ يفوحُ من لحيةِ أبي صباحَ العيدِ.

حدَّقتُ في كفّي طويلًا، رحتُ أقرأُ خطوطَها، تذكّرتُها، حفيدتي تجلسُ أمامي، تأخذُ كفّي بينَ يديها:

– أقرا كفَّكْ يا جدْ؟ ترى أنا أعرفْ أقرا الكفْ، وأعرفْ إيشْ راحْ يصيرْ لكْ.

تنهرُها أمُّها:

- حرامْ ترى ما يعرفْ الغيبْ إلّا ربّي.

- هوَّ أنا لسَّهْ راحْ يصيرْ لي شيْ يا هبلةْ؟

أضحكُ وأنا أفردُ كفّي لها:

- ما ني هبلةْ، شوفْ يا جدْ، هذا خطْ القلبْ.

تضحكُ زوجتي:

- شوفي لي يا بنتْ مينْ اللي شاغلينْ قلبُهْ.

- ما فيهْ ولا وحدةْ، إنتِ بسْ.

تجلجلُ ضحكةُ زوجتي:

- كذّابةْ ونصّابة، طالعةْ لجدِّكْ.

- طيِّبْ، وهذا خطْ العُمُرْ يا جدْ...طويلْ ممدودْ منْ الجنبْ للجنبْ، شويَّة ويلفْ على يدَّكْ.

كانَ خطُّ العمرِ قد التفَّ على اسمي حينَ اختلفَ أبي وأمّي عند تسميتي، اختارَ أبي لي اسمَ جدِّه سعدٍ، واختارتْ أمّي لي اسمَ جدّي سعيدٍ، نافحَ أبي عن اختيارِه:

- أبويا سعيدْ ماتْ شباب، ما تعدّى الثلاثينْ، وجدّي

سعدْ تعدّى التسعينْ، ولو ما الرصّاصةْ اللي انطلقتْ من الجبلْ وكَرَفَتْ في الأرضْ ودخلتْ في إذنُه وماتْ بعدَها بثلاثةْ أيامْ كانْ تلقينُه قاعدْ لليومْ في ركنْ البيتْ.

يضحكُ، وتصرُّ أمّي:

- الأعمارْ بيدْ اللهْ، بسْ اسمْ سعيدْ أحلى.

وكانَ ما كانَ، حملتُ اسمَ سعيدٍ وعمرَ سعدٍ، ولمْ تعدْ هناكَ جبالٌ ولا بنادقُ ورصاصاتٌ تضعُ نهايةً لمن تبالغُ أعمارُهم في الطّولِ، لا جبالَ ولا بنادقَ ولا رصاصَ ولا طلّابَ ثأرٍ يتربّصونَ، ماذا لو بقيتُ حيًّا تتوارثُني الأجيالُ، انتقلُ من ركنِ بيتٍ لركنِ بيتٍ:

- هذا جدْ جدّي.

يقولُ حفيدُ حفيدي، أتذكّرُ مُسعدًا:

- نِسِيني الموتْ يا سعيد.

أشعرُ برجفةٍ في أضلعي، ماذا لو نسيني الموتُ؟ الموتُ مرعبٌ، ولكنَّ الحياةَ مرعبةٌ كذلكَ، أشدُّ رعبًا من الموتِ، ربّما لا يليقُ بنا أنْ نَصِفَها بالحياةِ تلكَ التي لا يكونُ ختامَها الموتُ، الموتُ هو الذي يعطي معنىً للحياةِ، الحياةُ والموتُ، البرُّ والبحرُ، الجبلُ والسّهلُ، الخيرُ والشرُّ، الدنيا

والآخرةُ، لا شيءَ يتحقَّقُ إلا بنقيضِه، لا شيءَ يتحقَّقُ إلّا بـما يلغيه، كأنّـما يظلُّ تحقّقُ أيِّ شيءٍ مرتهنًا بنهايتِه، كأنّـما توجدُ الأشياءُ بفَنائها، ذوبانِها فيما هو الضِّدُّ لها..

- جد إنت سارح في إيه؟

أخرجَتني حفيدتي من دوَّامةِ تفكيرٍ أشرفتْ بي على ضربٍ من الهذيانِ، سألتُها وأنا أحاولُ أنْ استعيدَ وعيي:

- طيِّبْ خطْ العُمْرْ هذا ما باينْ له آخرْ؟

وكنتُ أرى العُمْرَ قافلةً من نوقٍ كلّما نفقتْ ناقةٌ حملوا رحلَها على ناقةٍ، والطَّريقُ وادٍ متعرِّجٌ تحفُّ به الجبالُ، قالتْ وهي تمّررُ إصبعَها على كفّي:

- شوفْ واصلْ إلينْ هِنا.

سحبْتُ يدي من يدِها، وحينَ غادرتْ عدتُّ أحدِّقُ في خطوطِ كفّي، لم أعرفْ أيَّ الخطوطِ خطّ القلبِ وأيّها خطّ العمرِ، بدتْ لي كفّي متغضِّنةً وخطوطُها متداخلةً كبيتِ العنكبوتِ.

لم تكنْ بيوتُ العنكبوتِ التي كانتْ تتدلّى من سقفِ بيتِنا مصيدةً للذُّبابِ فحسبُ، كانتْ مصيدةً لخيالاتي كذلكَ، أستلقي على ظهري طويلًا وأروحُ أتأملُها..

حينَ حدَّثنا مدرِّسُ الدِّينِ عنْ غارٍ بنى عليه العنكبوتُ بيتَه ليحجبَ النَّبيَّ وصاحبَه عن كفَّارِ قريشٍ فلا يرونه أصبحتُ أرى خلفَ خيوطِ العنكبوتِ في سقفِ بيتِنا غارًا وأكادُ ألمحُ في عمقِ الغارِ رجلين يطرقُ أحدُهما حزنًا ويهمسُ له صاحبُهُ: لا تحزنْ إنَّ اللهَ معنا، أُدني أذني من الجدارِ فأسمعُ وقعَ حوافرِ خيلٍ وهمهمةَ رجالٍ لم أكنْ أشكُّ أنَّهم كُفّارُ قريشٍ، أركضُ خارجَ البيتِ لعلّي أراهم فلا أرى غيرَ الغبارِ، أعودُ أحدِّقُ ثانيةً في خيوطِ العنكبوتِ وظلالِ رجلينِ يختبئانِ في غارٍ، أهمسُ لهما:

- خلاصْ، روَّحوا.

يختفي الرَّجلانِ، تطيرُ حمامةٌ ويلمُّ العنكبوتُ خيوطَه ويمضي، الغارُ يبدو كجرحٍ غائرٍ في خشبِ السَّقفِ، جثثٌ تتدلَّى، ذئبٌ يقعي عند مدخلِ الغارِ، الريحُ وأصواتُ الجنادبِ.

رأيتُه، كثَّ اللحيةِ أشعثَ الشَّعرِ، يسندُ ظهرَه إلى صخرةٍ في الغارِ، حولَه تتناثرُ عظامٌ، عيناه تلمعانِ في العتمةِ، وجمرةٌ تتَّقدُ على طرفِ الغليونِ، لا صاحبَ له إلّا سيفُه، سمعتُ همهمةَ أصواتِهم، خرجتُ أعدو ولمْ أرَ أحدًا وحينَ عدتُ حدَّقتُ في السَّقفِ، كانَ غليونُه وحيدًا في الغارِ والجمرةُ لا تزالُ تتَّقدُ.

خرجتُ من تلعثمي وسألتُ أبي:

- أبويا، العنكبوتْ ليشْ ما بنى بيتْ على غارْ جدّي راضي يخلّي جماعتُهْ ما يشوفونُهْ ويمسكونُهْ؟

تشاغلْ بفنجانِ قهوتِه، وعدتُ أُلحُّ عليهِ بالسُّؤالِ:

- أبويا، مو العنكبوتْ بنى بيتْ على الغارْ اللي فيه النّبي وصاحبُهْ، ومِنْ شانْ كذا ما شافوهْ كفّار قريشْ؟

- إيوا.

- طيِّبْ ليشْ ما بنى العنكبوتْ على غارْ جدّي بيتْ؟

- منْ شانْ اللهْ أمرُهْ يبني بيتْ على الغارْ اللي فيهْ النّبي وصاحبُهْ.

- طيِّبْ ليشْ ربّي ما أمرْ العنكبوتْ يبني بيتْ على غارْ جدّي؟

- من شانْ جدّكْ ما كانْ نبي.

- يعني ربّي يساعدْ النّبي بسْ؟

- أستغفرْ اللهْ العظيمْ، ربَّك يساعدْ كلْ النّاسْ.

- طيِّبْ ليشْ ما ساعدْ جدّي؟

- جدّك كانْ قَتّالْ قُتلةْ، وربّي يساعدْ النّاسْ الطّيِّبينْ، ما يساعدْ اللي يقتلونْ الناسْ.

قالتْ أمّي وهي تصُبُّ لي فنجانَ القهوةِ، رمقَها أبي بغضبٍ وأشارَ لي أنْ أشربَ فنجاني قبلَ أنْ يبردَ.

مذْ كنتُ طفلًا كنتُ ثالثَهما حينَ يحينُ موعدُ القهوةِ، تصبُّ أمّي الفنجانَ الأوّلَ وتمدُّ يدَها بهِ لأبي:

- صلّي على النّبي.

وتصبُّ الثّاني لي:

- زيدْ النّبي صلاةْ.

كانَ النّبيُّ حاضرًا معنا، شاهدًا على أحوالِنا، مشاركًا لنا في فنجانِ القهوةِ لا نشربُها إلا بذكرِه والصّلاةِ والسّلامِ عليه، كأنّما نُطهِّر ألسنتَنا باسمِه فلا تمسُّ القهوةُ شفاهَنا إلّا على طهارةٍ، كانَ حاضرًا، كلّما شجَرَ خلافٌ في البيتِ قطعَه أحدُ الحاضرينَ:

- يا جماعةْ صلّوا على النّبي.

كأنّما يعيدُ باسمِه والصّلاةِ والسّلامِ عليهِ المختلفينَ إلى سَكينةٍ أخرجَهم الغضبُ منها، كانَ حاضرًا في بدءِ كلِّ حكايةٍ:

- بعدْ الصّلاةْ والسَّلامْ على رسولْ اللهْ..

كأنَّما هو بدءُ كلِّ الحكاياتِ وخاتمتُها، كانَ حاضرًا حتّى في الأجرِ المكتوبِ لمنْ يقتلُ الوزَغَ:

- اللي يقتلْ الوزَغْ بيمينُهْ يومَ الخميسْ كأنُّه صافحْ النِّبي.

تقولُ جدَّتي، وهي تحكي كيفَ كانَ الوزغُ يزقزقُ قربَ الغارِ الذي اختبأَ فيه النَّبيُّ وصاحبُه حينَ هاجرا من مكَّةَ إلى المدينةِ ليدلَّ كفَّارَ قريشٍ على مكانهما، وكيفَ كانَ ينفخُ على النَّارِ التي ألقى النمرودُ فيها سيِّدَنا إبراهيمَ لتزدادَ ضراوةً فيما كانتْ بقيَّةُ الحيواناتِ تتفلُ عليها كي تنطفئَ.

لم يكنْ قتلُ الوزغِ مهمَّةً صعبةً، المهمَّةُ الصّعبةُ هي التمييزُ بينَ الوزَغِ والتلّيسةِ، يتشابهان، كلاهما دويبةٌ زاحفةٌ لا يكادُ يخلو بيتٌ منهما، وإذا كانَ الأجرُ والثَّوابُ مكتوبًا لمنْ يقتلُ وزغًا، فإنَّ الإثمَ سيبقى ملاحِقًا لمنْ يتعمَّدُ قتلَ تلّيسةٍ، تلكَ الدُّويبةُ التي بلغتْ منْ الخيرِ والصَّلاحِ أنْ أصبحتْ تُسمَّى أمّ صالحِ.

وإذا كانَ للوزغِ تاريخٌ موشومٌ بالتآمرِ على الأنبياءِ فإنَّ التليسةَ لم تكنْ تملكُ تاريخًا يبرِّرُ ما كانتْ تتمتَّعُ به

من حظوةٍ وما تحظى به من أمانٍ، لم تكنْ مثلَ العنكبوتِ الذي اكتسبَ حصانتَه منذ بنى بيتَه على الغارِ فلمْ يعدْ أحدٌ يتجرأُ على أنْ يتعرَّضَ له بالأذى، كانتْ التلّيسةُ تشاطرُ سُكّان البيوتِ منازلَهم، لهم أرضيَّةُ الحجراتِ ولها جدرانُها والسقفُ.

- إنتبهْ لا تقتلْ التَّلّيسَةْ تحسِبْها وزغْ، قتلَها حرامْ.

- ليشْ ياجدّةْ حرامْ؟ هيَّ زيْ الوزغْ.

- لا، ما هي زيْ الوزغْ، اللهْ بينّا وبينْها.

تسمّي بالله وتستعيذُ بهِ وتروحُ تروي حكايةَ تلك المرأةِ التي كانتَ تراقبُ التَّلّيسةَ في الجدارِ، لاحظتْ أنَّ تلكَ التَّلّيسةَ، أو أمَّ صالح كما يسمّونَها تحبُّبًا فيها واعترافًا بصلاحِها، حُبلى، تمنَّت لو شهدتْ ولادةَ تلكَ التَّلّيسةِ، وفي ذاتِ يومِ أيقظَها من نومِها طرقٌ على البابِ، حينَ فتحتْه كانتْ ثلاثُ نسوةٍ واقفاتٍ، طلبْنَ منها أنْ تلبسَ عباءتَها وتلحقَ بهنَّ:

- أمْ صالحْ بتولدْ، تعالي بسرعةْ.

- أمْ صالحْ بتولدْ؟ منْ متى جِبلتْ منْ شانْ تولدْ؟

- إنتِ تعالي بسْ، هيَّ بنفسَها طلبتْ إنَّكْ تجِينْ.

كانتْ تحتُ الخُطى وراءَ النِّسوةِ الثلاث، يعبرْنَ من زُقاقٍ إلى زُقاقٍ، تغيَّرَ لونُ الأرضِ منْ تحتِ قدميها، والغبارُ الذي كانتْ تثيرُه أقدامُ تلكَ النِّسوةِ لمْ يكنْ يسمحُ لها أنْ تتبيَّنَ ما حولَها، ارتقتْ سلالمَ وهبطتْ درجاتٍ، انتهوا بها إلى قصرٍ كبيرٍ تغطِّي جدرانَه الأشجارُ وتملأُ فناءَه شجيراتُ الفلِّ والريحانِ، أبوابُه من فضَّةٍ ومقابضُ الأبوابِ من ذهبٍ وجدرانُه من مرمرٍ صقيلٍ، قادتْها النّسوةُ لامرأةٍ في إحدى حجراتِ القصرِ، تستلقي على فراشٍ من دمقسٍ، وعلى النّوافذِ ستائرُ مطرَزةٌ منْ حريرٍ، حولَها تجمّعَ نسوةٌ بيضٌ في أرديةٍ بيضاءَ وكانتْ تعاني آلامَ المخاضِ.

تعالتْ الزّغاريدُ وهنَّ يرفعْنَ طفلَها عاليًا، أبيضَ كانَ كأنّما أنجبتْ قمرًا، سألتْ امرأةً تجلسُ عن يمينِها:

- هذي مينْ ؟

- أمْ صالحْ، ما تعرفينها؟

- لا واللهْ، ما أعرفْها بسلامتْها.

- ويْ، أمْ صالحْ اللي قلتي يا ليتني أشوفَها لمّا تَولِدْ.

- أمْ صالحْ؟ التِّلّيسَةْ؟ بِسْمِ اللهْ الرّحمنْ..

وقبلَ أنْ تُكملَ التّسميةِ باللهِ كانَ كلُّ شيءٍ من حولِها

يختفي، تلفتُّ، لم تجدْ القصرَ والنسوةَ وأمَّ صالح والوليدَ الذي يشبهُ القمرَ، قرأتْ المعوذاتِ سبعًا وآيةَ الكرسيِّ.

– يا ما نهيتْكْ عن نومةْ العصرْ، وإنتِ ما تسمعينْ الكلامْ.

قالت لها أمها حين روت لها ما حدث، وأضافت:

– بخّري البيتْ بالشَّذابْ، وحصِّني نفسِكْ وعيالِكْ.

– واللهْ يا مَيمْتي ما أخلّيهمْ يدخلونْ ولّا يخرجونْ إلا محصِّنتْهمْ.

لم أكنْ أذهبُ إلى المدرسةِ صباحًا أو أخرجُ للعبِ عصرًا إلّا وقدْ أسبغتْ عليَّ أمّي درعًا من الرُّقى، حصنًا ألوذُ به فيحميني منْ مَسِّ الجنِّ وإصابةِ العينِ ولدغِ الحشراتِ، أجثو على ركبتيَّ مغمضَ العينينِ أمامَها، تضعُ يدَها على رأسي، تتمتمُ:

– حصَّنتَكْ برَبِّ الملكوتْ واعتصمتْ بربّ الجبروتْ وتوكَّلتْ على الحيّ الذي لا يموتْ، إصرِفْ عنّا الأذى إنّك على كلِّ شيءٍ قديرْ، حصَّنتَكْ بآياتِ اللهْ التامَّةْ، منْ كُلِّ دابَّةْ وهامَّةْ وكُل عينٍ لامّةْ إصرِفْ عنّا الأذى إنّك على كلِّ شيءٍ قديرْ، حصَّنتَكْ....

تنفثُ على رأسي ثلاثًا، أشعرُ بآياتِ الله التامَّةِ تنسابُ من يدِها، تحيطُ بي منْ كلِّ جانبٍ، حيثُما التفتُّ وجدتُ آيةً تحولُ بيني وبينَ جنّيٍّ يتربَّصُ بي أو عينٍ ترصَّدُني أو حشرةٍ كلَّما حاولتْ الاقترابَ منّي صدَّتْها عنّي تلكَ الآيةُ، ولم أفقدْ بموتِ أمّي شيئًا كما فقدتُ ذلك الحصنَ المكينَ، بتُّ أخرجُ حاسرَ الرأسِ مكشوفَ الصّدرِ، يتلقفُني عتاةُ الجنِّ وتترصَّدُني سهامُ الأعينِ وتحاصرني هوامُ الأرضِ.

تمدُّ أمّي لي فنجانَ القهوةِ:

- بسْ لّمنْ يكونْ فيهْ أحدْ عندنا لا تطلبْ قهوةْ، ترى عيبْ الصّغارْ يشربونْ قهوةْ.

- ليه عيبْ؟

- قلتْ لكْ عيبْ وخلاصْ.

- طيِّبْ الكبارْ يشربونْ قهوةْ، ليهْ ما هو عيبْ؟

- يوهْ من أسئلتَكْ اللي ما تخلِّصْ.

- طيِّبْ لّمَنْ يكونْ خالي سالمْ عندَنا؟

- قولْ خالي وبسْ، ما عندَكْ خالْ غيرُه حتّى تقولْ اسمُهْ.

- طيِّبْ لّمَن خالي عندَنا؟

- خالَكْ غيرْ، هوَّ اللي خلّاني أشرَبْكْ القهوةْ الله يهديهْ، منْ يومْ ما قالْ لي إنّها تفتّحْ الذّهنْ صارْ فنجانَكْ بفنجاننا.

تفْتيحَةُ الذِّهنِ صارتْ هي الضَّريبةَ التي كانَ عليَّ أنْ أدفعَها كيْ أكونَ مستحِقًّا لذلكَ الفنجانِ من القهوةِ، لمْ أكنْ أستطيبُ طعمَه في البدءِ غيرَ أنّه كانَ كفيلًا أنْ يمنحَني شعورًا بنشوةِ أنّني لمْ أعدْ طفلًا بعدَ أنْ اصبحتُ أشاركُ الكبارَ فيما لا يشربُه إلّا الكبارُ.

- أبويا، جدّي راضي لّما كانْ في الغارْ، الوزَغْ دَلْ كفّارْ جماعتُهْ عليهْ؟

- جماعتُهْ ما همْ كفّارْ، مسلمينْ كانوا زيّنا.

- آه، بَسْ لوْ كانْ جدّي راضي نِبي كانْ العنكبوتْ....

قلتُها وأنا أقلّبُ في يدي فنجانَ القهوةِ كما كانَ يفعلُ أبي، قاطعتْني أمّي:

- استغفرْ ربّكْ، حرامْ تقولْ كذا ..ما علّموكْ في المدرسةْ إنهْ النّبي محمّدْ كانْ آخرْ نبي؟

وكانتْ على حقٍّ، مدرسُ الدِّينِ علّمنا أنَّ النّبيَّ محمّدًا هو آخرُ الأنبياءِ، سالتُه وأنا على حافّةِ البكاءِ:

- يعني ما عادْ فيه نِبي بعدُهْ؟

- لا، ما عادْ فيهْ نَبي بعدُهْ.

- ليهْ طيِّبْ، ليهْ؟

- أستغفرُ اللهْ العظيمْ، هذي حكمةْ اللهْ وتدبيرُهْ، ما يجوزْ تقولْ ليهْ، حرامْ.

عدتُ يومَها إلى البيتِ حزينًا مكسورَ الخاطرِ، كمنْ خرَّ من السَّماء ولمْ يجدْ أرضًا تتلقَّفه، لو أنَّ أحدًا فتَّش قلبي قبلَ ذلكَ اليوم لوجدَهُ ينبضُ بأمنيةٍ واحدةٍ: أنْ أصبحَ حينَ أكبرُ نبيًّا، ولمْ يكنْ يعكِّرُ صفوَ تلكَ الأمنيةِ إلّا الانتظارُ الطّويلُ.

كانَ معلّمُ الدِّينِ قدْ حدَّثنا عنْ النَّبيِّ طويلًا، عن الرَّجلِ الذي يحبُّه اللهُ أكثرَ من كلِّ الخلقِ ولهذا اختارَه منْ بينِ كلِّ النّاسِ كي يكونَ نبيًّا، عن الرَّجلِ الذي أحبَّه أصحابُه أكثرَ ممّا يحبونَ آباءَهم وأمهاتِهم وأخوانَهم وأخواتِهم وأبناءَهم وبناتِهم، عن الرَّجلِ الذي قاتلَ الكفّارَ حتّى انتصرَ عليهم جميعًا، عن الرّجلِ الذي علينا أنْ نطيعَه فنفعل ما أمرَ به ونبتعد عمّا نهى عنه، عن الرَّجلِ الصّادقِ الذي لا يكذبُ، والأمينِ الذي لا يخونُ والشّجاعِ الذي لا يخافُ والقويِّ الذي لا يضعفُ.

لم يكنْ المعلِّم، حينَ كانَ يتحدَّثُ عن النَّبيِّ، يتحدَّثُ

عن رجلٍ غريبٍ عنّي، كانَ كأنّما يتحدَّثُ عن رجلٍ أعرفُه حقَّ المعرفةِ، رجلٍ يحيا معنا في بيتِنا، نتذكّرُه حينَ نشربُ القهوةَ فنصلّي ونسلّمُ عليه، وتتذكَّرُه جدَّتي فتبدأُ حكاياتِها بذِكرِه، وحينَ يعلو صوتُ المتشاجرينَ يحضرُ كي تهدأَ النفوسُ، ويومَ أن تصيبُ عينٌ إنسانًا فتلحقُ به الأذى تكنُ عينًا مدنّسةً لمْ تُصلِّ على النَّبيِّ، لم أرَه قطُّ ولكنَّه لمْ يغِبْ قطُّ عن بيتِنا، كأنَّما كانَ واحدًا منا، حين سألتُ عنه يومًا وعلمتُ أنَّه قدْ ماتَ شعرتُ بحزنٍ عميقٍ، سألتُ جدّتي ذاتَ مرّةٍ:

- متى ماتْ النِّبي محمّدْ؟

- مِنْ زمانْ ياوليدي.

- يعني لمّا كنتِ صِغيرةْ؟

- لا، ماتْ منْ زمانْ، قبلْ ما أنولدْ.

- خسارةْ، يعني حتّى إنتي ما لحقتي تشوفينُهْ.

ذاتَ عيدٍ سألتُ والدي ونحنُ نجوسُ بينَ قبورِ موتانا، نقرأُ عليهم الفاتحةَ قبرًا قبرًا:

- أبويا فينْ قبرْ النِّبي محمّدْ؟ أبغى أشوفُهْ.

- حبيبي، قبرْ النِّبي محمَّدْ في المدينةْ

- جنبْ بيتْ عمْ وَصِلْ؟

- إيوا.

- طيّبْ نقدرْ نقرا عليهْ الفاتحةْ هِنا؟

- إيوا، إقرا عليهْ الفاتحةْ.

- وتوصِّلْها لهْ الملايكةْ؟

قالَ لنا المعلّمُ إنَّ النَّبيَّ أصبحَ نبيًّا حينَ بلغَ من العمرِ أربعينَ سنةً.

- يوه.. استنَّى كثيرْ على بالْ يصيرْ نبيْ.

همستُ بها لصاحبي، تذكرتُ شيئًا، رفعتُ إصبعي مستأذنًا في الكلامِ:

- جدّتي تقولْ..

ضجَّ الفصلُ بضحكِ الطُّلابِ وراحوا يتهامسونَ، نهرَهم المعلِّمُ فأكملتُ:

- تقولْ محمّدْ نِبي منْ مهادُهْ.

- هذا مَثَلْ.

- يعني إيهْ مَثَلْ؟

- يعني لما يشوفونْ رجّالْ طيّبْ يقولونْ هوّ أصلًا كانْ طيّبْ منْ لّما كانْ طفلْ صغيرْ، مو صارْ طيّبْ لّما كِبرْ.

- يعني النّبي محمّدْ كانْ طيّبْ من لّما كانْ في المدرسةْ؟

- النّبي محمّدْ ما راحْ أصلًا المدرسةْ.

- طيِّبْ مينْ علَّمه يصيرْ نبي؟

- ربِّي علَّمهْ يصيرْ نبي.

سألتُ يومَها صاحبي ونحنُ نغادرُ المدرسةَ عمّا يريدُ أنْ يكونَ حينَ يكبرُ، قالَ بغيرِ قليلٍ من العجرفةِ:

- أبغى أطلعْ ضابطْ.

تصنَّعَ مِشيةَ العسكر، ثمّ سألَني:

- وإنتَ؟ أيشْ تبغى تصيرْ؟

- ما أدري.

فرحتُ لأنّه لم يفكِّرْ فيما كنتُ أفكِّر فيه، وأخفيتُ عنه ما أريدُ أنْ أكونَ حينَ أكبرُ كي لا ينافسَني ويتمنّى ما أتمناهُ، وأزددتُ فرحًا حينَ سألتُ السُّؤالَ نفسَه لأندادي في الحيِّ ونحنُ نلعبُ عصرًا فتوزعتْ أمنياتُهم بينَ الطَّبيبِ والمهندسِ والضّابطِ والطَّيارِ والمعلِّمِ، ولمْ أخبرْهم عمّا

أريدُ أنْ أكونَ حينَ أكبرُ، كنتُ مطمئنًّا أنّني سوفَ أصبحُ الرَّجلَ الوحيدَ الذي إذا أمرَهم بشيءٍ فعلوه وإذا نهاهم عن شيءٍ أنتهوا عنه، وأنّهم سوفَ يحبّونني أكثرَ ممَّا يحبونَ آباءَهم وأمهاتِهم.

وحدَه صديقي عابدٌ لم أستطعْ أنْ أخفي عنه تلكَ الرَّغبةَ، انتحيتُ به جانبًا في فناءِ المدرسةِ وفاتحتُه بها، أخذتْه الدّهشةُ:

- نبي؟ إنتَ مجنونْ؟

- لا، بسْ أحسنْ شيْ للإنسانْ لَمّنْ يكبرْ إنّه يكونْ نبي، إنتَ سمعتْ كيفْ الأستاذْ يتكلّمْ عنْ النّبي؟

- طيِّبْ ما فكرتْ كيفْ تصيرْ نِبي؟ ومينْ أصلًا اللي يعلِّمْكْ كيفْ تصيرْ نبي؟

- ربّي راحْ يعلِّمني، النّبي محمّدْ ربّي علّمُهْ يصيرْ نبي، ما سمعتْ الأستاذْ يقولْ كذا؟

وعلّمني المدرِّسُ نفسُه بعدَ أيّام أنَّ النبيَّ محمَّدًا هو آخرُ الأنبياءِ ولا نبيَّ بعدَه، تركني أحلمُ ثم قضى على حلمي دفعةً واحدةً، رفعَني كطفلٍ يلهو معه والدُه فيرفعُه إلى سقفِ الحجرةِ ثم يتركُه يهوي مهشَّمًا على الأرضِ، لم يكنْ المعلِّمُ يعرفُ ماذا بنى في مخيِّلتي، كما لم يكنْ يعرفُ

ماذا هدمَ، ولم أعدْ بعدَها أعرفُ ماذا يمكنُ أنْ أكونَ حينَ أكبرُ فقدْ تقاسمَ أصحابي من حولي الأمنياتِ جميعَها ولم يتركوا لي شيئًا أتمناه.

وها أنا على بعدِ عقودٍ، لا أعرفُ كمْ بلغتْ من العَدَدِ، أعودُ كما بدأتُ لا شيءَ أتمنَّاه، وبينَ البدءِ والخاتمةِ لم تكنْ تخلو تلكَ العقودِ التي لا أعرفُ عددَها من أمنياتٍ صغرى لا أعرفُ عددَها كذلكَ، تساوى ما تحقَّقَ منها وما لمْ يتحقَّقْ، لا تكادُ تخرجُ جميعُها عن أمنيةِ ضيفِ الله حينَ رأى حقولًا تمتدُّ حيثُ امتدَّ بصرُه، فمالَ إلى صاحبِه:

– تمنَّى ولّا تمنيتْ أنا.

– تمنَّى يا ضيفْ اللهْ.

– أكونْ ثورْ عمْ داخلْ وأَدِجّ في هذي الخُضْرةْ.

– والله إنَّكْ ثورْ.

لمْ يكنْ ضيفُ الله وحدُه ثورَ عمْ داخلْ، كلُّنا كنّا ذلكَ الثورَ، ولم تكنْ أمنياتُنا جميعُها غيرَ حقلٍ من الحشائشِ، ذلكَ الحقلُ الذي ما أنْ تخضرَّ أرضُه حتّى يرحلَ إليهِ البدوُ، تسبقُهم إليه قوافلُ نوقِهم وقطعانُ أغنامِهم وسيوفُهم المسلولةُ وخناجرُهم وحناجرُهم يتنادونَ إلى الموتِ، يتقاتلونَ حولَه، وحينَ ينتهونَ من اقتتالِهم يكونُ

عشبُ الحقلِ قد جفَّ، وأغنامَهم قد نفقتْ ونوقُهم تفرَّقتْ في الأرضِ، يدفنونَ قتلاهم ويتركونَ رمَمَ أغنامِهم للذئاب، وينتظرونَ موسمًا جديدًا يخضرُّ فيه حقلٌ، يتسابقونَ إليهِ، يتقاتلونَ عليهِ، ثمَّ يغادرونَه مقبرةً لقتلاهم ورممِ ماشيتِهم ومرتَعًا للذئابِ.

أمنياتُنا كلُّها، ما تحقَّقَ منها وما لمْ تتحقَّقْ، ليستْ سوى حقولِنا الخضراءِ، إليها نعدو، وحولَها نعقدُ أفراحَنا ونقيمُ مآتمَنا، وحينَ نموتُ تصبحُ مقابرَنا.

أسألُ حفيدتي:

- أيشْ تبغينْ تصيرينْ لمّا تكبرينْ؟

- دكتورةْ، وإنتَ يا جدْ إيشْ تبغى تصيرْ؟

- ثورْ عمْ داخلْ.

كدتُ أقولُ لها ذلكَ، غيرَ أنّي قلتُ:

- خلاصْ صِرتْ يا رزان، صرتْ واللي كانْ كانْ.

أعودُ أحدِّقُ في بيتِ العنكبوتِ في يدي، تلتفُّ الخيوطُ، تتعرَّجُ، تتلوَّى كالأفاعي، أنفضُ يدي، تتساقطُ الأفاعي على الأرضِ، تزحفُ من حولي، تتسلّقُ الجدرانَ، الجدرانُ غدتْ حبالًا مفتولةً من الأفاعي، أشعرُ بدوارٍ، أرتمي على فراشي وأحدِّقُ في السّقفِ.

كشاف عام

أ

ب

ج

ح

د

ر

ز

س

ش

ص

ط

ع

غ

ف